# صدى الأنين

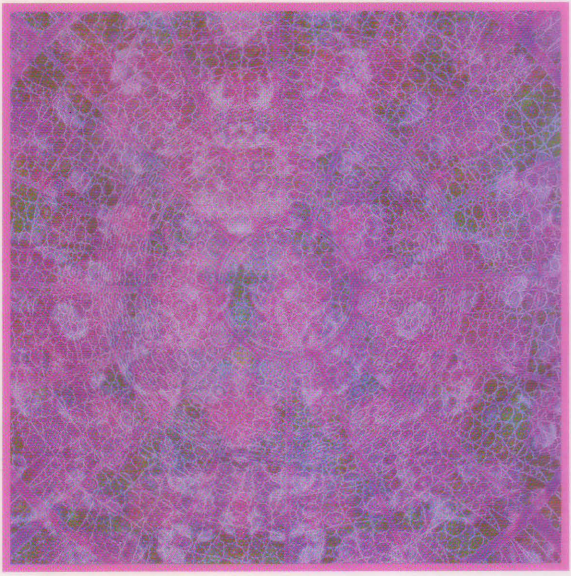

إلهام مانع

دار الساقي

إلهام مانع

# صدى الأنين

رواية

دار الساقي

تصميم الغلاف: رامونا ديراني

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى ٢٠٠٥

ISBN 1 85516 499 X

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة الساروﻻ)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)
e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

# المرحلة الأولى

# مع المرض

# بداية

**الأم**

يقولون إنني مجنونة.

وإن أفعاليَ الخرفة تدلُّ على هذياني، وإنّ مخالبَ المرض قد نهشتْ عقلي، افترسته، ثمّ حولته رماداً.

لذا... هم يؤكدون أن المستشفى هو خيرُ مأوىً لأمثالي.

وأنا لا أتفقُ معهم في الرأي.

هم المجانينُ وليس أنا.

كلُّ ما في الأمر أني قلتُ لهم إنّ زوجي هو ملكُ الجنِّ والإنس.

وإنَّ الكونَ بأسره يدينُ له بالطاعة،

وإني لذلك أحملُ لهم رسالة،

كلمة حق وهدى.

لكنهم، لأنَّ عقولهم أكلتها الديدان، لا يصدّقون.

وسواءٌ صدّقوني أم لا فالأمر سيّان.

اسألوه هو يخبرْكم.

* * * *

## هي

كم مرّةٍ رمقتها عشراتُ العيون، شفقةً وحذراً.

مسكينة، قضتِ المقاديرُ أن تفقدَ عقلها.

وكم مرّةٍ حاولت بدوري أن أتخيّلَ كيف يمكن للعقل أن يضيع.

هو ليس بسلسلة مفاتيح، تضعُها في دُرجٍ من الأدراج، ثم تنسى موضعَها.

وكثيراً ما حدّقتُ إلى تلك العيون المُشفِقة غاضبةً، ولعلّي كنتُ كارهة.

غاضبةً من آفة النسيان التي ما فتئت تُباركُ أحاديثَ البشر،

وكارهةً لطبعِ مجتمعٍ حَكَمَ على امرأة بالجنون وهو قاتلها.

هي لم تُخطئ كثيراً في اعتقادها.

هم المجانينُ وليس هي.

* * * *

## الأم

أبي أحبّني لدرجة العبادة، وأمي أيضاً.

صدقوني، فأنا خيرُ مَنْ يقرأُ ما بين السطور.

صحيحٌ أنّ والديَّ لم يُدركا عهد تحديد النسل، وأنّ حياتهما لذلك كُلّلت باثني عشر طفلاً، كلٌّ يستجدي لمسة حنان، إلاّ أنّ حبَّهما كان واسعَ المدى شمل القاصي والداني.

وصحيحٌ أنّ مشقّة الحياة مسحتْ على محيّاهما بغشاوة تجهّم، غير أنّ حياتي لم تخلُ من بسماتٍ متقطعة، أثبتت لي بإدراكهما أني كنتُ ولا أزالُ موجودة.

لذا فقد كنت محظوظة.

محظوظة لأني موجودة،

ومحظوظة لأنهما حرصا، قليلاً أو كثيراً، على تذكر وجودي...

* * * *

**هي**

أماه... زمنُ المعبود قد انتهى.

ولعلّ مصيبتنا هي أننا لم نَكِلَّ من اللَّهثِ وراءه.

نبحث عنه في كلِّ ركن، وراء كلِّ شجرة، كلِّ حجر، وحتى في العدم.

ونبكي بحُرقة لأننا لا نجده... ولا نيأس.

كم نصّبنا على أنفسنا آلهةً... صلاح الدين الأيوبي... جمال عبد الناصر... صدام حسين، وغيرهم كثُراً.

كانوا بشراً، كلٌّ في نفسه ضعف، والضعف عندنا وصمة.

ثم إنَّ عشق الإله ظل صفة لازمة...

ختمت على عقولنا

فأصبحنا لا نرى فيهم غيرَ القوة والعِصمة.

أيُّ غباوة!

مأساتُنا أننا لا نَكِلُّ عن البحث عن الإله في البشر، نرى أنفسنا في وجهه، ونقول: معه تُفتحُ كلُّ الأبواب، وبه سنعيدُ المجدَ الضائع، وبدونه لا أمل.

ولا أملَ ما دمنا نحيا في زمن المعبود.

# شتاء

**هي**

ـ الدنيا صقيعٌ هنا يا أمّاه. . . صقيعٌ ينفذ إلى العظام ولا مهرب. تمرُّ عليَّ أيامٌ أحلُم فيها ببصيصٍ من الشمس. أحلمُ وأحلمُ، لكنه زمهريرُ الشتاء.

ـ وزوجك؟

ـ زوجي؟ زوجي هو السلام!

ـ إذن احمدي الله. شتاءُ الطبيعة أرحمُ من شتاءِ رجلٍ لا يرحم.

* * * *

لي مع الشتاء قِصّة.

أكذب لو قلت إنني لم أعرفه إلا عند هجرتي إلى الشمال.

قابلته، حدقت إلى خطوط وجهه اليابسة، ولعلّي صافحت يدَه المتجمدة وأنا أبتسم لصقيع عينيه.

لكنَّ كُرتين من بَرَدٍ ما فتئتا تتدحرجان على خدّي.

تراني أبغضه؟

لا.

في الشتاء وبالشتاء أُدرك أني موجودة.

أُعايش نبض الحياة واقعاً ملموساً.

أحيا وأحيا وأحيا.

أنا هنا.

أقف على قدميّ رغم الصقيع.

وسأظل موجودة حتى بعد موتي، شاءَ شتائي العزيزُ أم لم يشأ.

* * * *

**الأم**

تجذبني أيادٍ قاسية. تدفعني وأنا أصرخ، وتطرحني على الأريكة وأنا أهذي: لست مجنونة...

تتخبط عيناي، جسدي يُكبّل، والأسلاك تضع على رأسي

تاجاً من شوكٍ ومسامير...

أصرخ وأصرخ من صميم أحشائي... كأني أنفخ في زمن بلا وعي...

يتحركون بآلية مقيتة.. لا شعور، لا عطف، ولا إدراك...

أرى الجهاز يُدار ثمَّ تهوي مئاتُ السكاكين والخناجر، تخترق عظام جمجمتي، تهشّمها، تُحيلها إلى رماد، وعقلي شعلة من نار تذوي،

أستسلم، ثم أهمد.

وأعود.

عيناي قِطعتان من زجاج مكسور تعكسان صورة غامضة لواقع باهت.

وأراها . . . ابنتي
الحزن متجمد على تقاطيع وجهها . . .
وأريد أن أسألها، لكنّ لساني يلتوي ولا يستجيب،
وأعود فاستسلم.

* * * *

**هي**

أتعرف؟

تمرّ عليّ أوقات أشعر فيها بأنني سأنفجر.

أودّ لو حطمت كلَّ ما حولي، وحبذا لو كنت أنا أوّلَ من تحطم.

جزء من عقلي يحترق، مع كلِّ نبضة من نبضات قلبي، في كلِّ لحظة، ومع كلِّ نفس أتنفّسه.

وأودّ، أودّ لو أسكن إلى واقعي الجميل في المهجر وأنسى، أو أصم أُذنيّ عن طنين هذا الصدى، صدى الأنين . . . ولا مفر.

* * * *

كان أبي يردّد دائماً على مسمعي: «الرجل حيوان، ورؤيته للمرأة نتاج حيوانيته. هو لن يتردّد في ركوب بقرة.

النساء لديه سَواء، فكلُّهن بقر يصلحن للركوب».

لذلك تعلّمت أن لا أرى في الرجل أدميته . .

فكلّما أقترب منّي رجل . . . أجدني بلا إرادة أذكر البقرة.

* * * *

ـ «قال ليَ الطبيب إنَّ بمقدوري السفر إليك والإقامة لديك لمدّة شهر. . .».

رنين صوتها يدعوني إلى الخلاص.

غير أني أسمع صوتي يجيب والعذاب ينهش وعيي: «هذا محال يا أُمّاه.».

بصوت طفوليٍّ تمزّقه خيبةُ أمل «محال أن تأتي وتأخذيني»؟

ـ «الإختبارات والرسالة. . .».

ـ «وهو»؟

صوتي يخبو «أنت تدركين كما أدرك تماماً انه لن يأتي».

ـ «لن يأتيَ هو الآخر»؟

ـ «أنا آسفة. . .».

ـ «وماذا سأفعل؟ أي عمل»؟

عقلي يحترق في إدراكٍ لوضع مستحيل وقلب جبان

«نحن هنا إلى جانبك».

آه يا رحمن، أيّ سخرية وأيّ هباء!

رددت «لن يأتي»؟

ـ «أنا آسفة».

ـ «أعرف. . . لكنّه الأمل».

# نصف نصف

**هي**

نِصف نِصف.

قليلاً هنا وقليلاً هناك.

لساني يلوك الكلمات وعقلي يضطرب من المعاني المختلطة ويسألني: بأيِّ لغة أُحدّثك؟

وأنا أحارُ في الجواب.

بأيِّ لُغة؟

بل قُلْ بأيِّ هُويّة يرتبط كياني؟

* * * *

لعلّي امرأة بلا هُويّة.

لي ماضٍ، وحاضر، ومستقبلٌ أيضاً.

جذوري ممتدة بين آفاق عدّة، وسواحل وشطآن متمايزة.

لأنّها كذلك، لا أعرف بالتحديد مَنْ أكون.

أرى الأشياء والأفكار والقيم في صفاتها النسبية.

ليس هناك حقٌّ واحد، أو فضيلة مؤكدة، فكلُّ المعالم مختلطة.

كلُّنا واحد، لكنّنا في تمايزنا نختلف.

العالم بأسره وطن لي، ووطني الواحد لا يعرفني.

أقف على مُفترق طريقين. طريق إلى الشرق والآخر إلى الغرب.

وقدماي تتنازعان. تشدّان جسدي في اتجاهين متناقضين.

قوتان متضادتان، والنتيجة حياد وسكون.

قدم هنا وقدم هناك.

نِصفُ هُويّة ونِصف طريق.

* * * *

عيناها، مرآة أنين ذاب فيه الحزن.

تصرخ بصمت، وتنطق بأسرها.

تدعوني... آوّاه، لكَم أفزعني رجاؤها.

تنزعني من جذوري، وترمي بي في هاوية سحيقة... فراغ وانين ورعب.

عيناك يا أماه... لعنة ظلت تلاحقني منذ وعيت.

دعوة عينيك، صَمتُ بكائها، وعذابُ رجائها.

أيُّ قدر أحمق سحق براعمك!

كيف أُفسّر غيابك؟

زهرة أنت، أطبقت يد الدهر على وريقاتك وسحقتها.

ولا من مجيب.

عيناك كانتا هاجسي وقدري.

كثيراً ما شعرت بهما تحدثانني عن أنين روحك، عن رحلة عمرك.

كثيراً ما شعرت بهما تتلمّسان حنايا وتقاطيع وجهي.
تدعوانِني أن لا أستسلم لقدرك.
تصرخان بي: أنوثتك هبة، لا تحتقريها.

# ويكا

**هي**

ويكا يا ويكا والنبيِّ إنها ويكا!

الشّهد والعلقم يمتزجان في ذكرياتها ويغشوان عليها حتى تتلاشى معالمُ الواقع ليحلَّ الخيال ويسود.

وأراها تضيع مني مرّة أُخرى.

وأشدّها بكلِّ قواي إلى هنا... الواقع والحقيقة... وهى تفرّ.

كأنها تعي تماماً مدى قساوة ما تهرب منه.

أُسابق عينيها وهى تحدّق إلى الفضاء بلا هدف،

وأغرس نفسي غرساً في حدقتيها وأصرخ بلا صوت «عودي. أنا هنا. عودي».

* * * *

وأحياناً أشعر بأنني سأنفجر غضباً وحقداً...

وأود لو هززتها ألفَ مرّة لتستفيق وأجدها من جديد.

أُحبّها... وأكرهها لهذا الحب.

لو كان مرضها شيئاً يمكن أن أضع يدي عليه لسحقتُه بقوّة ألفِ قنبلةِ حقدٍ ذريّة.

لكنه جزء منها ولعلّه هي.

أكرهها أحياناً، وأكاد أموت في كرهي.

وأشعر بأنني أمزّق قلبي وكبدي وروحي عندما أشعر بقبضة الكُره في أحشائي.

وأودُّ لو شققت صدري بأظفاري وخنقت الأنفاس من رئتيّ عقاباً عليها.

ثمَّ يعود الدفء إلى نفسي ويغمرني... وأجدني أُغسلها بدموعي وأحتويها بأنفاسي... وأودّ لو أُقفل عليها أبواب قلبي حمايةً ورحمة.

المرض لعنة يا ويكا.

آه يا ويكا... لو أن لي عصا سحرية تحيل الرماد إلى الذهب.

* * * *

آه... أكاد أراك مجسّدةً أمامي وأنت تحتضنين أُمَّك وهي طريحة فراش المرض... وسؤال يُعذّبك: إذا شُفيتْ فمع من ستعيش؟

معك؟

وزوجك؟

كم خفتِ من زوجك.

ومن يأسك دعوتِ إلى الله أن يأخذها.

وقلتِ لنفسك إنك بذلك ترحمينها.

واستجاب «هو»... كأنّه كان على موعد مع دُعائك

وقاتلتِ مشاعرَكِ لأنك أبيت أن تصدقي أنك تنفست الصعداء عندما صَعِدَت روحُها،

رغم دموعك التي تصرخ فيك بحبها.

أردت أن ترحميها من قسوة ضعفك.

واليوم أجدني أنظر إليك

قلبي مسحوق بحبي لك ورحمتي بك..

ولساني يقول: إرحمها يارب.

* * * *

**الأم**

زوجك هو تاج رأسك. هذا ما قاله لي أبي يوم زواجي.

ورغم صغر سني أدركت بإيمانِ عابدٍ أنّ كلَّ حرف يخرج من فم أبي قرآنٌ مقدَّس.

وصدقته..

ولا أزال أُصدقه حتى اليوم... رغم ابتسامة ابنتي الصامتة.

كما أن الرجل يعرف أكثر.

أمي رددت ذلك ألف مرة.

ولأنّ حديث أبي وقناعة أُمي متوافقان على الدوام وجدت نفسي أردّد معهما: آاااامين.

* * * *

ويوم وجدت صورتها معه في جيب معطفه قالت لي أُمي: يا عبيطة، عشيقة لا لَزيقة.

حكيمة كانت أمّي دائماً.

ويومَ رمى صفحة الطعام لأنّ مذاقه لم يُعجبه، قال لي أبي: للرّجل نزوات.

ولم أُجادله.

كان بالتأكيد يعرف أكثر.

ويوم قلت لابنتي إن للزّوج عليها حقَّ الطاعة ردّت بسخرية: حقّه يذكره جيداً وماذا عن حقي أنا.

غريبة ابنتي هذه.

* * * *

**هي**

وماذا عن حقي وحقك أنت؟

ما موقعنا من الإعراب؟

فاعل ومفعول به.

مرفوع ومجرور.

كم أحببت قواعد اللغة العربية.

ليس فيها عهرٌ هذه اللغة.

المرأة مرآة الفضيلة وللرجل مثل حق الأنثيين.

وأمي تقول إن لكلٍّ هذا حكمة،

وأنا تعلمت أن الحكمة تخرج عادة من أفواه المجانين.

أين نحن من خارطته؟ أُم؟ أُخت؟ زوجه؟ أم عشيقة؟ والعشق أبدي.

حقيقة غائبة ودعوة صامتة تجاهلها في الطريق.

كنّا له ذيلاً يشدُّه في لحظاتِ نشوة طارئة.

وأمي تقول إنه يعرف أكثر.

غير أني قلت لها إنه يعهر أكثر.

# مجنونة؟

دعني أؤكّد لك هذه الحقيقة: «أنا مجنونة».

أقولها لك بكلِّ فخر... وبصدق.

نعم، أنا مجنونة.

مجنونة مجنونة مجنونة.

فقدتُ عقلي منذ زمان بعيد. ورثيتُه وأنا أدفنه مع من حولي من المشيعين.

ثمَّ تناسيتُ رثائي وسعدتُ كثيراً بدفنه.

أجل، أحسستُ بقوة وتباهٍ وأنا أهيلُ التراب على خلايا عقلي.

فقد مات العقل وبقي الجسد.

وأصبحتُ أُقدّم نفسي إلى الآخرين بعبارة: «مرحباً، أنا مجنونة».

وكانوا يفرحون كثيراً بهذا التقديم.

بهذه الحقيقة.

كانوا يثنون عليَّ كما لو كنتُ تجسيداً للأُم تيريزا.

بل إنهم فكّروا في أن يُنصّبوا لي تمثالاً من العاج. اعتبروني نبية، نطقت بالحق، ولم تخش لومة لائم.

جميلٌ أن تُكافئَ على جنونك.

صحيح أنهم هم أنفسهم ضربوني بالنعال يوم كان عقلي لا يزال نابضاً بالحياة، ، لكن ميزة موت العقل هي النسيان.

ثم إنهم كانوا أدرى.

وصحيح أنهم هم أنفسهم قطّعوني أشلاء وذبحوني ألف مرة يوم عزمت التفكير لنفسي دون قيود،

لكن ذاك كان ماضياً وانتهى.

كما أني آنذاك كنت مصابة بمرض التفكير، مرض عضال لو كنتم تدركون.

«أنا مجنونة».

أقولها وأنا أرقص.

أرقص عارية في خطوات دائرية حول نفسي، وأغرس خيوط النار في جسدي لأنبعث كتلة من جحيم الجنون.

وأقولها وأنا أغرس خنجر الذكرى في جمجمتي وأشقها في خطوط عمودية، أفتحها وأتفرّج.

على ماذا؟

معك حق، فلم يبقَ هناك ما يستحق الفُرجة.

وأقولها وأنا أُجَرُّ بسلاسل ذهبية تُحيط بعنقي كأنني كلب من نسل عريق، وذيلي يهتز في سعادة مروعة تكاد تكتم أنفاس صاحبي.

آه، كم أنا صادقة.

وفية أنا.

إلى درجة السقم.

ومضحية أنا.

إلى حد السفه.

أُصدّق ما يُقال لي، وأُطيع ما يُملى عليّ، وأعيش كما كُتب لي، وأقبل أن أكون مَطيّة، وأُحب أن أكون مداساً، وأبتسم في كلِّ هذا.

آه، ما أروعَني.

ما أبدعَني.

كُتلة أنا من عبقرية الجنون.

أُصبت بها في لحظة هذيان أو تجلّي.

وأفقت منها وأنا أمامك، أقول لك: «مرحباً، أنا مجنونة».

# الأم

«مجنونة. مجنونة».

أتظنين أني لم أُدرك؟

الحديث اللطيف إلى درجةِ السمْق. النظرات الحذرة، والتسامح الغبي مع كل حركة تبدر مني... أو كلمة تخرج من فمي.

«مسكينة. غاب عقلُها مع أشعة الشمس».

وأنا أتمادى...

ولولاك لنزعت ملابسي وخرجت عاريةً إلى الشوارع...

أنظروا، هاكم جسدي،

تملّوا بتقاطيعه حتى الشّبق.

وكانوا سيُمصمصون شفاههم حسرةً: «أوه، مسكينة. لو عرفتموها أيّامَ عزِّها... فينوس في جلالها».

وآهٍ من أيام عزِّها...

* * * *

جدُّك كان ابن شيخ. هرّبه أبوه ذاتَ ليله خلسةً خشيةً من قبضة الإمام.

قال له موتك أرحم من حياتك رهينة لديه.

وهرب.
عاش فتره في السعودية ثمَّ رحل إلى مصر
تزوج هناك ثلاث مرات. كانت أمي الثالثة.
كان غنيّاً، لكنّه فقد ثروته بين ليلة وضحاها.
فلم أعرفِ العزَّ الذي عاشه بعضٌ من أخواتي.
عرفت معنى الفقر: الجوع والملابس المهلهَلة.
هل تفهمين لِمَ أُحِبُّ طعم البِطّيخ مع قِطعة الجبن الحاذقة؟
كان طعامنا.
وستفهمين أيضاً لِمَ لا أُطيق رؤية فقير يستجدي.
قد عشت ما عاناه.
ورغم أنك عشت حياة الرفاهية فقد تشبعت بمعنى الفقر،
كأنك خبرتِه بنفسك.

* * * *

**هي**

ويكا يا ويكا، أنا هم يا ويكا.
عشت حياتهم وحياتي معاً... ولَمْ أعد أرى الفرق يا ويكا.
هم أنا وأنا هم، والشاطر من يُحدّد الملامح.
آه يا ويكا لو أن لي عصاً سحرية تحيل الرماد إلى الذهب.

* * * *

**الأم**

كنت في الثامنة من عمري.

عدت إلى البيت من المدرسة.

ورغم الضوضاء وطنين أخوتي أدركت أن شيئاً ما يُدبّر.

جاراتنا قابعات في الصالة، وداية الحارة تنظر إليّ بعينيها. وأمي تُربّتُ على كتفي بحنان غريب.

لَمْ أُدرك ما سيحدث إلاّ عندما أدخلتني إلى غرفة النوم وتركتني مع الداية وبعض الجارات. لم تحتمل رؤية نحري.

وصرخت بأعلى صوتي.

أيادٍ تمسك بي من كل جانب وتسمرني على السرير ومِقصّ الداية يذبح قطعة اللحم البَضّة. وينبوع من الدم يتدفق ليعلن موت الطبيعة باسم الفضيلة.

لكني رفستها بقدمي، وركلت رأس الداية،

أيُّ قوه مكنتني من الإفلات من قبضتهن؟

وهربتُ من الغرفة ومسار من دمى يتبعني في هرولتي مع كل خطوة.

ورأيتُ أُمي خارج الغرفة... وجهها تشكيلة من ألوان متناقضة

لم أتوسل بالكلمات، عيناي عاتبتاها بألم هستيري.

وعندما حاولتِ الداية أن تجرَّني مرّة أُخرى منعتها أُمّي: «قد قطعت ما يكفي».

وقد كفى فعلاً.

* * * *

صفعتني أُمّي عندما سألتها «ماالحب»؟.

كنت في السابعة من عمري.

واحتضنتني بخوف عندما زارتني الدورة الشهريّة.
وكنت في التاسعة من عمري.
وشدّت شعرها عندما حاول ابن الأصدقاء إغوائي،
وكنت في الحادية عشرة.
وتحسّرت عندما قال المُدرِّس لأبي إنّ ابنته غبية.
لم أقل لها إنه حاول الاستفراد بي في فصل خال في المدرسة.
فصفْعَتُها كانت لا تزال تطنّ في أُذني.
وكنت في الثانية عشرة من عمري.
وبكت يوم زِفافي...
وكنت في الثالثة عشرة من عمري.

* * * *

جميلة أنا. بل أنا الجمال مجسداً.
«لعنتك كانت جمالك».
كنت أُقيم الشارع وأُقعده عندما أمرُّ فيه.
«جسدك كان مأساتك».
قلوب كثيرة قُدّمت قرباناً لجمالي. وزوجي عشقني حتى العبادة.
«ولم ير أحد فيك غير دمية من خيال مشبوب».

* * * *

«لا بدّ من زواجها». قالها أبي بحزم.
«إنها اجمل بناتي يا حاج. ما زالت صغيرة. حرام يا حاج». قالتها أمي باستجداء.

لكنَّ الحاج حجب العقل وقال إنَّ جمالها لعنة.
أراد لها الستر. فحفر لها القبر.

* * * *

قطعة لحم بضّة تُثير الرعب.
والستر من ستار محجوب.
استرها أو اقطعها.
عارية هي، فاسترها.
في حين أنَّ من الطبيعي أن نُمارس الجنس دون ستر، إلاّ أنها كانت بحاجة إلى الستر كي تمارسه.
والستر من ستار محجوب.

* * * *

**هي**

«عقل الرجل بين فخذيه».
قالها أبي ألف مرة.
كأنه أراد أن يحفر هذه الكلمات في كياني.
ولكم تمنّيت أن أحكي له عن أُمنية متوحشة تراودني في أحلام يقظتي.
أمي كانت ستشهق من مجرد التفكير فيمَ أقوله، فهي تؤمن كما آمنت أمّها بأنَّ للرجل عصمة.
ولكني أجد صعوبة من الفرار من حُلم يقظتي.
أراني أقف أمام طابور من رجال عُراة.

رجولتهم منصوبة أمامي.

وبيدي سكين حاد.

وأمرُّ أمام كلٍّ منهم وأضرب بكلِّ قواي لتتساقط أعضاء رجولتهم تحت قدمي...

وأنا أبتسم...

بشع حُلم يقظتي هذا. أليس كذلك؟

* * * *

## الأم

آمنت بالله منذ يوم وجودي.

ورغم أني لا أذكر لحظة مولدي إلا أني واثقة تماماً من أنه ذكرني آنذاك.

أحببته دائماً حتى وأنا أتلقّى الصفعة بعد الأُخرى.

وكنت دائماً أقول لابنتي: أنت لا تفهمين، لكل هذا حكمة.

وهى لا ترد.

ثم إنه اختارني.

اختارني دون النساء جميعاً كي أحمل رسالته إلى الكون بأسره.

وخصّني بحديثه.

حتى إنه حدّثني أثناء نومي.

* * * *

ليلةُ زِفافي كانت ليلة مشهودة.

ورغم صغر سني كدت أموت من سعادتي.

عروس. . . وملابس وحِليّ جديدة.
اليوم لن أحتاج إلى ملابس أختي الكُبرى.
والغريب أن أُمّي ظلّت تنغزني على صدري بكوعها.
فابتسامتي غطت كل وجهي.
نهرتني مرّاتٍ عدّة: لا تبتسمي هكذا، ماذا سيقول الناس.
ولم أكن أعرف للزواج معنىً أكثر مما قدّم إليَّ من مَصاغ.

ثمَّ تَجمّعَ بعضٌ من صديقات أُختي حولي.
همسن إليَّ بأنَّ الليلة ليلةٌ كُبرى.
وعندما همست بدوري: وما الجديد في ذلك؟
ضحكن.
«دم كثير سيجرى». قالت إحداهن.
وتذكرت الداية.
«سيجرحك». أضافت أُخرى.
ورأيت المِقص.
«لكنْ لا تخافي». شجعتني كبراهن.
فغابت ضحكتي.

وعندما أقفل الباب علينا تجمّدت في الركن وعيناي تتابعانهِ بحذر.
وكلّما اقترب منى انحشرتْ أنفاسي في حلقي.
ولأنه رأى خوفي فقد ابتسم بحنانٍ وقال: «لن يحدث شئ. نامي».

ولم أكن أعرف بالضبط ما هو المفروض أن يحدث لكن خيال جريان الدم منعني من النوم... ثلاثَ ليالٍ.

ولم يلمسني.

إلاّ أنَّ أُمي وأبى قلقا.

أبى أخذني إلى ركن وسألني بحزم إن كنت قد أخفيت شيئاً عنهم...

ذكرى ابن الجار لا تزال تطارده.

وأُمي ظلت ترمي كلمة هنا وكلمة هناك في وجه زوجي: «بعض الرجال رجولتهم من ورق».

وكاد عقله أن يطير.

جرعني زجاجة نبيذ غير أن عينيَّ ظلّتا مفتوحتين على وسعيهما.

فرائحة الدم أبت أن تفارقني

وعندما لمسني قاومته كذبيحة تَخرجُ بقيّةُ رمقها.

صفعني.. وسقطت على السرير... ولم أشعر...

وخرج بالمنديل الأحمر.

وكاد أن يقذفه في وجه أُمّي.

* * * *

**هي**

ويكا يا ويكا والنبي إنها ويكا.

أمي قالت لي إنَّ فضَّ البكارة مثل شكة دبوس،

والعجيب أني آمنت بقولها.

ويوم فُضّت بكارتي كانت شكّةُ الدبوس مثلَ طعنة خنجر تلقيتها بشجاعة.

وأبى قال لي إن الجنس طبيعي مثل الهواء والماء،

ولذا يدين زوجي له بالعرفان.

# الأب. . . والحلم

«لو أنّ أُمك قالت لي «لا» لتغيّر وجه الدنيا».
قالتها. . غير أنك لم تسمع نداء عينيها.
«لو أنها صرخت واحتدت»!
صوتها كان عورة.
«لو أنها صفعتني»!
لكنْ للزوج عليها حقّ الطاعة. . . لا تنسَ.

* * * *

من أنتِ حتى تحاكميني؟
أُنظري حولك. . ثمَّ افتحي فمك إن استطعت. .
لست وحدي في قفص الاتهام،
فكلنا فيه إن كنت لا تعلمين.
لا تحاكميني بالله عليك،
فلو كان الميزان بيدي لحاكمت الكون ومن فيه.

* * * *

أدركتُ أنْ لا مفرَّ من الثورة. . . وكان ذلك في الخمسينات
ثم رأيتها تلد جنيناً مشوهاً. . . وكان ذلك في الستينات
وكففت عن قراءة الصحف. . . وكان ذلك إثْر النكسة
ولم أيأس. . .
لكني رأيت الهرم يهوي. . .
ورأيت الأمل يذوي. . .
ورأيت المستقبل يضيع. . .
ووجدت نفسي أتوه. . .
ولم أفقد إيماني بالثورة. . .
فقدت إيماني بالإنسان
فيأست.

* * * *

**هي**

وظللتَ طوال حياتك ذلك الثوري الحالم، تؤمن لتكفر، وتحلم لتطعنك الخيبة في الصميم.
بَكيتَ حُلمك كل يوم. . .
لم تنسه كما نسيه غيرُك
لم تدفنه كما دفنه غيرك. . .
والمعجزة أنك لم تفقد إيمانك بالثورة. . .
ماتت أمام عينيك. . . لكنها لم تمت في وجدانك
ظلت فيك. . . جذوة تلاطمها الريح ولا تنطفئ
ولأنك كذلك. . . كنت نزيهاً

ورغم النزيف... كنت شريفاً
وبقيت وحدك هرماً شامخاً
تقف حزيناً...
بين أطلال فاسدة تنخر ديدان النهب والرشوة في كيانها
ولأنك كذلك كان لا بدَّ من قتلك
فلم يجدوا سوى كأسك يعيبونها عليك
أرادوا طعنك... أرادوا قتلك
أرادوا محو الثورة من عينيك
فمن كان مثلك يُزعج حتى الثمالة...
وجودُك في حدِّ ذاته كالطنين يَقضُّ مضاجعهم
فلا تنكسر...

ربما لذلك حاولت جهدي دائماً ألا أطعنك في حُلمك الذي تمثّلتُه لك.

أردت أن أكون لك الخلاص... فأين خلاصي يا ترى؟
آه من أحلام الحالمين يا أبي،
وآه من صدى أنينك وأنينها.

# الأب . . . وحظيّة!

«حظيّة»؟ همست العجوز وهى تمعن النظر بعينيها الممسوحتين في خيالي الواقف عند حافة الباب.

«أنا حفيدتها يا خاله». شبحها اخترق حجاب الزمن وقفز أمام عيني.

رددت رغم ذلك: «حظيّة».

اقتربت منها وكدت أحفر وجهي في عينيها وبنبرة تقترب من الحدة أجبت: «لست حظيّة، أنا حفيدتها».

رفعت يديها وأمسكت بوجهي وقالت: «كأنك هي».

كأني هي؟

بل لعلّي هي في زمن غير زمانها.

وهناك أوقات كنت أدور فيها حول نفسي وأهذي: من أنا يا جدتي؟

أنا صورة الحاضر، أسيرة لماضيها.

بيننا رِباطٌ تجاوز صلة الدم المباشرة.

كلانا تجرع من كأس الواقع، قطرة قطره،

وعشنا . . .

عشنا بكل نبضة من نبضات قلوبنا،

بكل ما أُوتينا من قوة.
تمثلنا معنى الحياة وكنا من الحياة وفى الحياة شرياناً حيّاً.
لن أموت يا جدتي كما مات غيري..
لكني ما زلت أسألك: من أنا؟

* * * *

حظيّة هي أنت.
ألم تفهمي بعد؟

* * * *

**الأب**

لأنها أُمي فقد كرهتني.
فمولدي كان عُنوان طلاقها.
ولأنها حظيّة قصصت عليك حكايتها ألف مرة.
أُمي لم تكن أكثر من رحم استأجروه بعض الوقت كي يلد ذكراً.
فزوجة أبي كانت عقيماً قوية...
ولأنه أراد الولد فقد زوجتهُ شريطة أن يُطلّق بعد الولادة
كانت أمي بقرة... ولم تُدرك ذلك.
لكن الذينَ زوّجوها كانوا يعرفون... ثمّ إنّهم كانوا قد قبضوا الثمن.
ملعون أيها الفقر...

* * * *

والمصيبة أنه أَحبّها فعلاً. . .
كيف لا يحبها وكلُّ مَنْ عرفها أحبَّها
حتى مَنْ كرهها أحبَّها
لكنه ألتزم الوعد. . . فأنزل عليها الوعيد
نزعوني من أحضانها لحظة مولدي. . .
ولم يُجدِ صراخُها. . .
ذهب هو الآخر مع الريح
وأصبحت مطلقة وهي في الخامسة عشرة من عمرها.
ثمَّ حط الصمت عليها.
ألمٌ بلا صوت. . . حزنٌ بلا دمع
فانسلخت من الصخر صلدةً.
ثمَّ أصبحت حكايتُها مضرباً للأمثال

* * * *

امرأة مختلفة.
حتى قامتها الفارعة كانت شيئاً مختلفاً في يمن الثلاثينيات
قوية إلى درجة القسوة
عنيدة إلى درجة العنف
وتريد أن تحيا. . .
لعلها أقسمت بأن لا تكون أُلعوبة في أيدي الآخرين مرة أُخرى
ولعل ذلك جعلها تؤمن بأنها هي وحدها المسؤولة عن مصيرها. . .
لن تكون عجينة في يد القدر. . مرة أُخرى

ولن تهَبَ حبها لرجلٍ يرفسه بقدمه. . . رغم حبه

ولأنها عرفت طريقها فإنها لم تأبه للعادات. خرجت للعمل في وقت كان الخروج عيباً، وبتصميمها أصبحتِ المرأةَ الوحيدةَ التي تولت الإشراف على أملاك عائلة من الأثرياء!

كان عملاً ينفرد به الرجال.

لكنها كانت امرأةً فريدةً بين الرجال.

ثم إنها تزوجت بعد ذلك كما أرادت.

حتى عندما أنجبت. . . أنجبت كما أرادت

بلا قابلة أو نسوة حولها

وحدها. . .

كحيوان متوحش وحزين

كانت تُولّد نفسَها بنفسها.

وماتت أيضاً وحدها. . .

مع وليد ميت حزين.

* * * *

**هي**

أبي وفي النار مثوى كل والدة ووالد أنجبا للبؤس أمثالي.

كم مرة قلَتها لي؟

وكنتَ على حق.

ثم انك قلتَ أيضاً إنَّ العاجز مَنْ لا يستبد.

وفي هذه لم تكن مُحقّاً.

فالعاجز فعلاً هو مَنْ يستبد!
لكنّك لم تعرف منهم سوى القسوة فأنّى لك أن تعرف؟

* * * *

## الأب

يوم مات أبي عرفت معنى اليتم مزدوجاً.
فقد عرفته مع أمي وهي حية.
وكنت في السادسة من عمري.
أقربائي الذين كانوا يتسابقون لإرضائي بدؤوا يتسابقون على الميراث.
وعندما استصدروا حكماً بالوصاية عليّ عبّروا عن رضاهم بركلي.
فكان درساً في الحياة.
ولولا كلمات أُمي الجافة لأصبحتُ نكرة
قالت لي: غيرك له أب أمّا أنت فليس لك سوى العِلم.
كلمات كالدبابيس انغرست في نفسي كاليقين

* * * *

وتعلمتُ على ضوء الفجر.
كان زيت القنديل غالياً على الأوصياء.
ولأن تبرير وجودي لدى الأقرباء كان لازماً... فقد عَمِلت وأنا أدرس
كنت في التاسعة من عمري.

عَمِلت في صناعة الصابون، ونقلِ الفحم، ورعايةِ الجِمال ودرست في الوقت نفسه،
فأصبحت من الأوائل.

* * * *

ودخلت المدرسة الثانوية.
إنجاز كبير إن كنت لا تعرفين.
وتمكنت من الدراسة دون أن أقع فريسة للشواذّ من الصبيان.
إعجاز أكبر إن كنت لا تعلمين.
وأغمضت عينيّ عما يحدث لغيري من التلاميذ.
كان ضرورةً للبقاء وأنت تفهمين.
وحصلت على ترشيح بعثة الأربعين.
فكان الفَرَج.

* * * *

لم تبكِ أُمي عند وداعي.
لم تذرف دمعة واحدة.
احتضنتني وقالت: الله معك.
ثمَّ مضت دون أن تنظر خلفها.
يا الله أيَّ حبٍّ قاسٍ كان حبّها؟
كانت صورةُ قامتها المُدبرة آخرَ ما رأيته منها بعد ذلك. فقد ماتت وأنا في المَهجر.
كنت في الخامسة عشرة من عمري.

* * * *

آه، لو أن أمك صفعتني لتغيّر وجهُ الدنيا.

* * * *

بحثت عن الله وأنا في لبنان ومصر.

بحثت عنه في كل مكان. قرأت عنه وعن عدمه في كل فكر.

وعدوت وراء ظلّه في كلِّ ركن.

حتى وأنا طفل صغير كنت أبحث عنه.

فقد قال ليَ قائل إن الدّيك عندما يصرخ مؤذّناً بميلاد الفجر يصيح «الله أكبر».

أردت التأكد. والشك فضيلة إن كنت لا تعلمين.

فظللت ليالي طوالاً دون نوم أنتظر الديك حتى يكبّر.. فلم يكّبر.

فكفرت بالديك.

وظللت أشكو شكّي لأنه رفض أن يُظلّني بجواب.

* * * *

متى رأيت أُمك؟

كان ذلك حُلماً من أحلام الأساطير.

هل تصدقين أني عندما ذهبت إلى بيت جدك كنت أريد الزواج من خالتك.

لكنّ أُمك قدمت إليَّ الشراب.

كانت صغيرة.

في الحادية عشرة من عمرها.

ولأنها كانت أميرة في أحلام الأساطير فقد سحرتني.
لم أتزوّج بأُختها.
انتظرت سنتين وتقدّمت مرةً أُخرى... هذه المرّة لطلبِ يدها.
وتزوّجت بها رغم فارق السن بيننا.

* * * *

لو كان العشق جنوناً لكنت أكبر مجنون عرفه وجه الخليقة.
أحببتها إلى درجة الخَبَل.

وأحبَتكَ هي أيضاً إلى درجة الجنون،
أيُّ حُبٍّ حبّكما هذا؟
ذاك الذي حول العجينة الطرية بين يديك إلى تمثال من ورد،
أزهرت،
وعندما تفتحت جُنت.

# هنا وهناك

كنا ثلاثة نتسامر.

أمهاتنا أخوات.

قصت إحداهن علينا قِصّة.

عَرفت تفاصيلها من شاهد عيان.

قال لها إنه المصريُّ، المُقيم في البلد العربي الموحش، اعتاد على الدراسة مع ثلاثة من الزملاء من أبناء ذلك البلد.

جلسوا معاً مرة بعد منتصف الليل والبيت خاوٍ.

بدأ اثنان منهما يتضاحكان.

ثمَّ بدءا يشاكسان أجمل من كان بينهم... ذاك الضعيف.

ثمَّ أخذا يسألانه عن رأيه في لواط الرجال؟

ثمَّ أمسكا به بالقوة عندما اعترض واغتصباه..

هكذا أمام عينيّ الشاب الغريب.

ولأنه كان خائفاً لم يفتح فمه.

ولأنه خَشِيَ أن يناله ما نال الجميل، رفع عينيه إلى السماء ثمَّ أشاح بوجهه وأخذ يغني لنفسه.

ولأنه كان يرتعش... اعتبر أنَّ ما حدث لم يحدث.
ثم عاد إلى كتابه يقرأه، ونشيج الجميل يملأُ الصمت.

* * * *

هناك يعيش الشواذ.
هناك تُرتكبُ الفواحش.
وهناك تُنتهكُ الأعراض.
وهنا؟

# هي وصداهن

صدى أنينك وأنينها، لا أسمع سواهما...
وماذا عن أنيني؟
جهازُ استقبالٍ أنا... أستقبل ولا أُرسل.
وقد صرخت ألف مرة لكنَّ عيني ظلتا بلا دموع.

* * * *

لحظة الطلق كنت وأخي إلى جانبها...
ردّدتْ هي مقاطعَ من الإنجيل وانسجم صوتنا معها ونحن نقرأ سورة الرحمن
ورأيناه يخرج من بين فخذيها
كتلة لحم حمراء تصرخ من الحياة...
وعندما علا صوته انهمرت دموعنا
رأيت فيه المستقبل
ودعوت الله أن يرحمه وان يجنّبه نصف الطريق الذي عرفناه لكنه مات.
كأنه لم يطقِ الحياة ليوم واحد.

* * * *

عشت حياتي كبدوية
أنتقل من عاصمة إلى عاصمة ومن وطن إلى آخر،
فأصبح العالم وطني،
أحط رحالي وأدق مسامير خيمتي لأنزعها قبل الاستقرار.
قلت مرحباً مليون مرة.
وقلت وداعاً ألف مليون مرة.
ولم أبكِ مرّة.
وكانوا يسألونني عن موطني
فكنتُ أحارُ في الجواب.
أنا هي أنا وكفى
وتعلمت أن أُحِبَّ مَنْ أتعرّف إليهم بقوة
وأن أنساهم بعد ذلك بنفس القوة.
لم أعرف أحداً لا يمكن الاستغناء عنه.
أليس هذا محزناً؟

* * * *

قالت إن أمّها فقدت عقلها عندما وجدت أباها مع صبيٍّ في السابعة عشرة من عمره.
وردّت الأُخرى بأنها خُطبت ثلاث مرات إرضاءاً لأبيها.
وقلت لهما إن الرجل في مجتمعنا نِصفُ إله ونِصفُ حيوان.
وضحكتا وهما تُنكران ما أقول.
ورجع صدى ضحكهن... بعد أن تزوجنا نحن الثلاثة من الأجنبي!

بحثنا عن الغريب هرباً من ذاك القريب.
تبرّأ منهما الأهل،
أما أبي فقد بارك زواجي من الرجل الأبيض.
كأنه أراد أن يجنبني مصير أُمي.
تنفس الصعداء وقال: «الآن أستطيع أن أموت».

* * * *

ولم أكره من الترحال سوى امتحان تحديد المستوى
الذي يتجدّد مع تجدّد الترحال.
ولا أنسى يوم أوقفتني المُدرِّسة وسألتني أن أكتب كلمة «سميرة»
أمسكت بالطبشورة ونظرت إلى خيال المُدرِّسة ثمّ بدأت برسم خطوط دائرية على الصفحة السوداء.
نهرتني عدّة مرات.
ظنت أني لم أسمعها جيداً.
وأنا كنت قد سمعتها،
لكن الخطوط الدائرية بدا شكلُها أجمل من كلمة سميرة
صاحت في وجهي «قولي لوالدك إنك ستنزلين إلى المستوى الثاني».
وكنت في السابعة.
فقال لي أبي: «حسناً فَعلت. قولي لمدرستك إنك ستبقين في المستوى الثاني، وصدقيني هذا أضمن لنجاحك في المستقبل».
وصدقته.
ورددت في اليوم التالي ما قاله للمُدرِّسة،

فجرتني من يدى إلى وكيل المَدرسة وقالت له: «أبوها يقول إنها غبية ومن الأفضل أن تُعيد السنة الدراسية».

لكن مشكلتي كانت دائماً في ذاكرتي،
لذا نبهتها أن أبي لم يقل إني غبيّة،
فنهرتني قائلة: «أُسكتي يا غبية».
وتجمع بعدها الأطفال حولي في حلقة دائرية،
تماماً كالحلقات التي رسمتها،
وقالوا «غبية غبية».
ولأنها وهم قالوا ذلك أقسمت بألاّ أكون غبية.
شكراً يا معلمتي الكاذبة!

* * * *

وكنت أعشق كلمة «لا».
كأني رضعتها حليباً من ثدي أُمّي.
وأبى أحبَّني أكثر مع كل «لا» نطقتها.
وكنت له مهجة القلب وقرّة العين.
أما أُمّي فقد كرهتني قليلاً، لأني قلت ما لم تقله.
لكني آمنتْ بأني نطقتُها بدلاً عنها.

* * * *

وباحت لي بسرها.
اغتصبها أبن الجيران وهى في السابعة.
ركبها كما يركب الحمار.

وظل يركبها دون علم أهلها حتى رحل.
ولأنها اقتنعت أنها المذنبة أحبت دمار نفسها.
فظلت تسمح لغيرها بركوبها.
وعندما قلت لها أن تبحث عن الطريق، قالت الطريق معروف.
أهلها قالوا هذا أيضاً.
يوماً ما ستتزوجين وتصبحين ستَّ الستات.
وفرقعت ضحكتي في الخواء.
وظلوا يعاملونها كدمية فلم تعرف من الحياة غير الزَّواق.
وقالت لي أريد الانتحار.
فأجبت أن اتركي الانتحار للعاقلين.
ولا تزال حتّى اليوم تُركبُ كما يُركبُ الحمار، وتظنُّ أن الطريق معروف وهى تفكر في الانتحار.

* * * *

وأكثر ما أدهشني آفة النفاق والنكران.
هناك... بعيداً... في الغرب... كل الآفات.
هناك... بعيداً... في الغرب... كل الموبقات.
وهناك تُنتهك الأعراض ويعيش الشواذ وينام الأخ مع أخته.
وهنا؟
قلتها،
فبصقوا في وجهي.

* * * *

ويومَ اغتصبها وهو مخمور بكت على كتفي ودموعها من دم.
وسألتها مراراً عن نبع دموعها فقالت بعد جهد: زوجي فعلها.
وقالوا إن للزوج على المرأة حق المتعة.
وهي صَعُبت عليها المتعة بين ذراعيّ فاسق.
ثمَّ قالوا إنَّ الإغتصاب فعل الغريب.
فكان من الصعب عليها أن تُسمّيَ ما حدث.
ولم أجد من الكلمات ما يُعزيها.
صمتُ وابتلعتُ صمتي.
ولعنتُ نفسي لصمتي.
وعزّيت عقلي برفع إصبعي في وجوههم.
ولما هذيت: وماذا عن هنا؟
مرغوا وجهي في التراب.

* * * *

ولم أؤمن بالله منذ يوم وجودي.
كما لم أبحث عنه وراء كل ديك.
فغيابه في قصة أُمي برهن لي أنه إذا وُجِدَ فهو هناك، بعيد في الركن القصي
قد يحبنا لكنه لا يكترث كثيراً أو قليلاً لوجودنا
وهي ردّدت أنّ له في كل ما يحدث حكمة... لكني لم أرَ للمرض حكمة.
ولذا أمنتُ بوجودي،
فقالوا إني غريبة.

ولم أكترث.
ثم قالوا كافرة فابتسمت.

* * * *

وأدركت منذ صغرى أن الوجود مغلّف بالأسرار.
وأنَّ أخطرها تلك التي تنطق بلحظات العيون.
وأنَّ هناك أشياء تُقال وأُخرى تُختصر في رموز.
وأحسنت قراءة الرموز في الوجوه
ولم أعرف أكان ذلك نعمة أم نقمة.
فقد مرَّت عليَّ لحظات تمنيت فيها أن أسمُل عيني لتكفّا عن قراءة الدموع
ثم إني ما زلت أدور حول نفسي وأهذي: من أنا يا جدتي؟
ولم أسمع جوابها، فصمتُ قبرها لا يزال يرن في أذني.
وأمي قالت لي إنّ ملك الجن والإنس سيتزوجها.
فقلت لها إذن سأنتظر دعوة زفافك.
وَضحِكت بسعادة، ومتُّ أنا في تعاستي.

* * * *

وعادت لتقول لي إن الله حدّثها أثناء نومها.
فعاتبته أثناء يقظتي.
آه يا مولاها، لِمَ لا توليها ولو قدراً من حبّها.
ورقصت له بهزّة أرداف شهرزادية عليّ أكون لها لديه قرباناً.
فلم يعبأ.

ثم ارتفعت نبرة صوتي وصرخت في وجهه، ولعنت الوجود، فلم يهتم.

ثم هدأت وقصصت عليه قِصّتي فلم يكترث.

لذا قلت لها بحقد جنوني: المصيبة أن الله أيضاً رجل.

فصفعتني بعينيها فصمت.

* * * *

«أبوك هو المذنب»

بصقتها العجوز الشمطاء في وجهي.

«طار عقلها بسببه».

نظرت إليها صامتة.

وتمنيت لو أنزع لسانها من عرقوبه واجعلها تبتلعه.

وأمي تسبح بين الغيوم ولا بد من مسبّب.

وهو نفسه يسألني: أأنا السبب؟ ودمعُه يلمعُ بين حدقتيه.

وأنا بينهما.

استمع له واستمع لها.

واقتنعت بإيمان عابد بأنّ كليهما كان على حق.

وربما كان للحقيقة وجهٌ ثالث أو رابع.

فأكثر ما أكرهه أن يقال إن للحق وجهاً واحداً.

ولا أزال أنظر إلى لسانها ونفسي تهمس لي أنه يستحق البلع.

# جهنم

فتحت على نفسي أبواب جهنّم.

انهدَّ كياني وأنا أكتب هذه السطور.

كأنني أحدثتُ خَرماً في سدٍّ فانهارت جوانبُه على رأسي وتدفقت مياهه في شلال جارف

جرف الماضي والحاضر، وجرفني معه.

وكانت أمي تقول لي: يوماً ما ستكتبين قصّة حياتي.

وكنت ابتسم مُشفقة.

فما قد يكتب لن يرضيها.

ولو لعنتني لما بكيت... ورضيت.

لكني قد عرفت أن هذه الحروف هي قدري.

وأني يوم أكتب سأكتب حتى أُفرغ الصديد من جوف جُرحي ويجفَّ مداد دمي.

وعرفت أيضاً أنني سأُلعَنُ من قِبَلِ القاصي والداني.

ذلك أني عندما قلت مرة: وماذا عن هنا؟

بصقوا في وجهي ثم مرغوه في التراب.

# شهرزاد وهي

وقالت شهرزاد: مولاي ابقي على عنقي هذه الليلة حتى أُفرّغ لك ما في جعبتي من حكايات.

ووافق شهريار فحكت.

الجنون فنون، وفني معروف

ولكن آه من نزيفي.

* * * *

ملك الجن والإنس قال لها إنه آتٍ وهي صدّقته.

وأنا ألعن الوجود وما فيه وأحلُم بهما أمامي.

أهذي بهما في يقظتي ومنامي.

وأراني أنحر شرايين يدي، وأقول لأبي وأمي: «هاكما دمي تذوّقاه».

أُقرّب ينابيع دمي النافرة من فمهما وأتوسل: «تذوّقاه».

فامتصّاه،

ثمَّ أعجبهما مذاقُه، فنهلا منه

وتجرّعاه. . . حتى تلاشيت. . .
غيبوبة من سحاب.

* * * *

اضربي بكلِّ قِواك حتى تدمى يداك.
وعندما ينفد غضبك اهمدي.
ثمَّ اغرزي أظفارك في عينيك حتى تتفجّرا،
وعندما تدمع عيناك بالدم، اهمدي.
أو انتزعي لسانك من جوفه ثم قطّعيه شرائحَ شرائح،
واشويه ثمَّ كليه،
وعندما تشمئزُّ نفسك من جنونك، اهمدي.
ومهما فعلت فنزيفك باقٍ،
ومهما فررت فأنينها معك.

* * * *

تمنيت أن أقدِرَ يوماً على لَعِنك.
فقد أتحرّر منك.
بيدَ أني بدلاً من ذلك وجدت نفسي أبحث عنك في كل ذَكَرٍ صادفته.
أريدك في كل رجل يمارس رجولته معي.
ولم ألعنك إلا يوم اكتشفت أني بحثت عن ذكر يفعل بي ما فعلته معها.

وعندما تحرّرت منه . . .

لم أتحرّرْ منك .

* * * *

قولي لي أين هو؟

أريد أن أراه .

فقد كفرت بكل المتعارف عليه .

ألسنتهم تدور كالطواحين . . ولعابهم يتراشق على وجهي . . ويجترون الحقَّ والباطل .

أيّ حق وأيّ باطل؟

وبأيّ حق يحددون لنا الأفق؟

أجدادنا والسلف الصالح؟

ماتوا وشبعوا موتاً .

واليوم يقولون إن ما مضى يصلح للراهن، ويدعوننا أن نكف عن التفكير .

كفوا عن الحياة وعيشوا الموت مع الأموات .

وأنا أريد أن أحيا .

أريني الله .

أريد أن أراه .

قد سئمت من سماع القصص .

أريد أن المسه بيدي،

أريدُ أن يراني.
فما أسمعه لا يكفي.
وعيناي تعبتا من التحديق إلى أفق معجون بخيال المخرّفين.

* * * *

يوم زواجها بكت حماتها بدموع التعاسة.
ولكي تثبت موقفها نامت في سرير الزوجية بين ابنها وعروسه.
وظلت بينهما حتى تمكن من الفرار بزوجته إلى غرفة بفندق.
وعندما حاول فضّ بكارتها، لم تنفضَّ.
فظنَّ بها الظنون،
وقدّم إليها «علقةً» ساخنة هدية عرسها.
وأرجعها إلي أبيها مُغلّفة بالشكوك، فعُبوتها كانت مضروبة.
وعندما سألها الأب عن فعلتها، حلفت له بكل غالٍ إنها طاهرة.
فشحنها إلى طبيب ليفحصها.
وجاء قرار الطبيب حكماً ببراءتها.
فأعاد شحنها إلى زوجها.
بضاعة سليمة خالية من العيوب.
فاعتذر له، ونَسِيَ أن يعتذر لها.

* * * *

ثلاث قطرات من دم تختصر مصير امرأة.
وعبوة مغلقة بين فخذيّ فتاة قُدّمت مفاتيحها للرجل.

الدم له والعبوة يفتحها قرباناً لرجولته،
والويل لها من تسول نفسها تذوّق رحيقها قبل القران.
الجنس قذارة لا بد منها.
لكننا نمارسه في خيالنا ألف مرة.
مارسناه حتى مع أبائنا وأمهاتنا وأخواتنا.
ونشهق.
ندعو إلى الطهارة كأنه براء منه.
ثم نتأوه.
البكارة قدرُ العذراء والرجل يُعذر عند التجربة،
معذور هذا الضعيف!
ويكا يا ويكا، ثلاث قطرات من دم تقطع بالفضيلة أو بالعهر.
الفضيلة من فضلات المفروض،
أما العاهرة فهي تَعهَرُ من عهد مكتوب.

# معاً

**الأم**

أتذكرين يوم جلستُ في صالة الشقة بمصر، أدور بعيني في أرجائها.

كنتُ خائفة وحائرة، لا أعرف أين الطريق.

وركعتِ على ركبتيك أمامي، وأمسكتِ بيدي، وتوسلتِ أن أذهب إلى المستشفى.

قلتِ لي يومها: أعيني نفسك بنفسك. ادحريه بقوتك.

كان في عينيك ألم ورجاء... وحب.

وصدقتُ عينيك.

وقلت لك: يفعل الله ما يريد. ليكنِ المستشفى إذن.

ودخلته.

منعوك عنّي أُسبوعاً.

لكنك كنت معي في كل لحظة.

بباقات الورود التي أرسلتِها،

وبكلمات الحب التي أرفقتِها في بطاقات ملونة.

ما زلت أحتفظ بهذه البطاقات إلى اليوم،
حتى عندما غاب عقلي من جديد.
لم أنسَها مطلقاً،
حتى إني ذكّرتك بها عندما نسيتها أنت!

* * * *

**هي**

ولم أعرف لحظةً تمازجت فيها نفسانا كلحظة ركوعي أمامك.
يومها أحسست أنني اخترقت حجاز العقل وحجاب الزمن، ورأيتك بوضوح.
وصدقيني أحببتك أكثر عندما رأيتك.
وظللنا شهراً معاً رغم جدران المستشفى.
وبهرني التحول الذي طرأ عليك...
كنت أنت لأوّل مرّة.
لم أعرفك هكذا.
كأن الغشاوة امتحقت لتسطع الشمس بقوة على تقاطيع نفسك
النجوم زغردت وأنا غنيت معها.

وقال لي الطبيب: «مأساة أمك في عقلها.
ولأنه حُوصِرَ بين جدران غيرها تمرّدت،
وكان تمردها جنوناً».

وكدتِ أن تشفي.

نعم... كدتِ...

أه ما أحلى تلك الأيام.

وددت لو نكون واحداً،

أنا وأنت.

تمنيت أن لا نعود إلى الوطن.

نبتعد عن الماضي ونعيش الحاضر معاً،

وحدنا.

لكن العودة كانت لزاماً.

ثم رجعنا...

وعندها غابتِ الشمس،

وتَهرّأ فاصل الغيب والواقع،

وذُبتِ.

تهت عنى من جديد.

وببطء رأيتك تتلاشين.

كأنَّ ما عشته معك هناك كان أُسطورة.

كأنك لم تكوني قط.

فقدتك مرّةً أُخرى.

وكان فقدك هذه المرة أبشع...

كنت كمن قبض على قبس من نور ثمَّ انطفأ في غمضة عين.

من المذنب يا أُماه؟

قولي لي من المذنب؟

أهو أم أنت؟

هربت منه دائماً.

وعندما وجدت نفسك، لم تحتمليها.

كان الجنون أرحم.

# الأم والأب في مفترق الطريق

## الأم

زوجي كان شهريار لكني لم أُتقن فنون شهرزاد.
بل تعلمت أن أرى الحياة بعينيه.
وأن أفكّر بعقله وأن أتكلّم بلسانه.
كان لي الدنيا وما فيها.
وكان ليَ الحياة. فأصبحتُ هو.
وآمنت به.
فكان نبيّي.
اقدم إليه صلاتي وأنحر له من نفسي قرباناً.
كان وجودي، لكنَّ وجودي ظل فارغاً من كياني.
أين أنا فيه؟
ولعلى تمنيت أن أقول له «لا» ولو مرّة.
لكنّي لم أجد في نفسي قوة تمكّنني من نطقها
كان النظر في عينيه كافياً لخَرسي.

* * * *

## الأب

عندما قامت الثورة كنتُ وأُمك في إحدى دول الشمال.

شاءتِ الأقدار أن أكون قائماً بالأعمال في سفارتنا في تلك الفترة.

فانتهزتها فرصة أنا ومجموعةٌ من الشباب الثائر،

واحتللنا السفارة وأعلناها سفارةً «جمهورية»

آه، ليتكِ عايشتِ تلك الأيام معنا.

كنتِ ستفهمين عندها معنى الحُلم... والأمل

وقد عايشناهما واقعاً أنا وأُمُك حينها.

كنا (أنا والشباب) نسهرُ ونحن نُعدُّ المنشورات والبيانات، ونوزعها على هيئة الأمم والسفارات مطالبين بالاعتراف بالنظام «الجمهوري»،

وكانت أُمك تسهر معي،

وتعمل معي،

كيدٍ واحدة.

وبعد أن تمّ لنا ما أردناه، غلبتني الحماسة وعدتُ إلى الوطن كي أتطوع للقتال.. دفاعاً عن الثورة.

لا أزال أذكر ضحكة صَديق العمر عندما حدثته عن سبب عودتي... وعن رغبتي.

ضحكة امتزجت بالأسى: «تتطوّع دفاعاً عن ماذا؟ قد نهشتها الضباع يا عزيزي».

فغادرت الوطن حزيناً.

لكنّي لم أستسلم.

ذهبت إلى موقع جديد في سفارة أُخرى.

وعملت ليلَ نهار،

وحينها اكتشفت حقيقة جديدة ستصبح واقعاً هي الأُخرى للوطن بأسره:

عندما تعمل تصبحُ عُرضةً لانزعاج من لا يعمل،

فيصُبحُ من الأسلم أن لا تعمل.

ولأني لا أُؤمن بالحلول الوسطى، صمّمتُ على العمل،

فكانت النتيجة أنّهم انهالوا علي طعناً.

يا ضَيعةَ الحُلم.

* * * *

**الأم**

وتمنيتُ طفلاً.

لكنه كرهَ الأطفال.

قال لي أبي: وفي النار مثوى كلِّ والدة ووالد أنجبا للبؤس أمثالي.

عجيب هذا الرب.

ثم تمثل بقول المعري: سئمت تكاليف الحياة فما أعجب إلا من راغب في ازدياد، تمثّله حقاً مقدساً نعايشه واقعاً.

جبارٌ هذا الرب.

غير أني أردت طفلاً.

فحملت رغماً عنه.

فصمم على الخلاص من الجنين.

متسلطٌ هذا الرب.

تجاهلت أوامره للمرة الأُولى وألقيت بالحبوب في المرحاض.

بطلةً كنت يومَها.

واعتقدت بأن اعتراضه سيذوب مع مولد البشير.

لكنه لم يكن إلى جانبي عندما هلّت البشرى.

كان في طرف بعيد من العالم.

أرسل إليَّ رسالة أختصرها في ثلاث كلمات: «اختاري بيني وبينه».

أهو مجنون؟

لم أعرف جواباً.

ثم اجتررتُ صمتي.

أجبته: «سأختارك كي أصون ابني».

وتركته.

أودعت فلذةَ كبدي أُمي، وتركته.

وذهبت إلى ربي في بلاد الغربة.

سنتينِ أو أقل.

لم أره لفترة سنتين أو أقل.

وزوجي، وجودي، غائب عن وجوده.

ثم رجعنا فاقتنع بوجوده.

سمع نبضه ولم يقدر على التجاهل أكثر.

لكن ابني لم يعرفنا حينها.

بكى لأنه ترك أُمَّه، وهي جدته.
وتعامل هو مع ابني في البداية كغريب، وهو من صلبه.
عجيب هذا الرب. جبار هذا الرب. متسلط هذا الرب.
أين أنت يارب؟

* * * *

**هي**

لم أعرف حجم ما فعلتِه إلا يوم أنجبت أنا.
كيف تركتِه؟
كيف طاوعتك نفسك؟
كيف هان عليك ذاك الوليد؟ ذاك الرضيع؟
أين عيناه منك يومها؟
كيف هانت عليك شفتاه تبحثان عبثاً عن ثدييك؟
كيف هان عليك حليبك يخنق صدرك بصراخ مذبوح؟
كنت أنظر إلى ابنتي وأحار مذهولة مما أقدمت عليه معه.
كيف؟
ظلّ السؤال متدلياً على شفتيّ طوال تلك السنين.
غير أنك كنت خائفة.
وفي الخوف عجز.
وفي الخوف شلل، ثم إن فيه الموت.
ولذا دفعت ثمن الخوف من نفسك كثيراً.
أين أنت يا رب؟

# ثورة أم وكسة؟

**الأب**

غريب كيف نؤرخ لمآسينا الشخصية بتواريخ سياسية.

لكنّه واقعنا.

كأنَّ مصائبنا تختزل مصيبتنا السياسية.

وأنت من بين كل الناس ظللت تسألينني بعينيك أسئلة كنت أخجل من الإجابة عنها.

لكني سأحكي.

ولعلك ستعذرينني.

ولعلك ستفهمين.

* * * *

قلت لها إن الإنجاب مصيبة ولم تفهمني.

فهل تفهمينني أنت؟

قلت لها إنَّ الثورة الحلم تحولت إلى كابوس فكيف ننجب بعد ذلك؟

لكنها لم تصدّقني.

قلت لها إني لن أُشارك في جريمة قتل إنسان وهو حي.

فمولد طفل جريمة . . . مادام واقعُه ابنَ واقعِنا .

مولده كارثة مادام القمعُ مهدَه .

حياته انتهاك مادامت كرامته ستنتهك .

قلت لها إن العقم هو خير ميلاد مادمنا نحيا في زمن المعبود .

لم تقتنع .

اعتبرتني أهذي ، وَحملت .

فاقتنعت أنها طعنتني .

ورفضت الاعتراف بأثر طعنتها .

هل تفهمينني؟

* * * *

ألم تصفعك حينها يا أبي؟

إذن فلِمَ لمْ يتغيّر وجهُ الدنيا؟

* * * *

ظل أخي غريباً عنكَ وعنها بعضَ الشيء رغم حبِّها وحبِّك له .

لم ينسَ انه هُجِر لحظةَ مولدِه .

كما لم يشعر بالانتماء إلاّ معي .

طفلة شقية تصغره بثلاثة أعوام .

أحبني وأنا أحببته أكثر .

فكنا لبعضنا السكن والمأوى.
وعندما قال لي مرة: «أتعرفين من هم الأهل»؟
لم أُجبه، فقد عرفت جوابه.
لكنّه صمّم ولم يعبأ لصمتي.
قال «الأهل أنت. وغيرُك سراب».

# يا وطن

**الأب**

كيف نؤرّخ لأحزاننا يا ابنتي؟

«كان تاريخُك حزنَ الوطن»

كيف نرسم خرائط حسرتنا؟

«كان رسمُك حسرةَ الفشل»

كيف نتجرع الخيبة؟ كلَّ يوم ألفَ مرّة؟

«كنت تتجرّعها شِفاراً حادةً تقطّع في حلقِ كيانِك وتبتلعها رغم ذلك. ألم تكنِ الخيبةُ خيبةَ الوطن»؟

آهٍ يا وطن.

آهٍ يا عروبةَ العرب.

* * * *

**الأم**

كان تاريخه تاريخ الوطن.

أما تاريخي، وأنا زوجته، فقد كان هامشاً لتاريخه!

ظلٌ أنا له. أليس كذلك؟

تِبْعٌ أنا له. أليس كذلك؟

ألم أُخلق من ضلع أعوج. . . من كتفه؟
أليس رضاه عني ضماناً لرضا الرب؟
أنا ضلعه.
بل أنا ذيله.
حلقة أنا لا تكتمل إلا بوجوده.
وبالتأكيد أنا لا شيء بدونه.
أين أنت يارب؟

* * * *

**هي**

لا. لست كذلك.
أنتما معاً تاريخ الوطن.
أنتما معاً مرآته.
حزنكما حزن الوطن.
ومصابكما مصاب الوطن.
مسكين هذا الوطن.

# فاصل

**الأب**

صدقيني أننا عشنا الحب بعذوبة رغم كلِّ شئ.

كنا مضرباً للأمثال في الحياة الزوجيّة.

وكانت حياتُنا في زمن الثورة نبض شباب يتّقد حيوية وحماساً.

لكنَّ الثورة ماتت.

وكان في موتها موتُنا.

* * * *

**الأم**

مرَّ فاصل من زمان بعد ولادة ابني.

ثمَّ قرَّرَ أن ننجب من جديد.

كان قراره.

هل تصدقين؟

وفكرتُ في قراره، وقررت أنه مجنون.

فرق شاسع بين الأمس واليوم.

لكني تلقفت الفرصة وأنجبتها. وكان إلى جانبي يوم خرجتِ إلى الوجود.

* * * *

**الأب**

نعم. أنا الذي قررت إنجابك.
فما ذنبه حتى يعيش وحيداً في هذا الزمن.
أردت لأخيك رفيقاً يقيه وحشة الدرب.
فكنتِ الرفقة له ولنا.
هل تلومينني على ذلك؟

* * * *

**هي**

وإلى اليوم كنت شاكرة.
شاكرة لك ولها وله.
فالحب رغم قيوده هبة.
وغيري لم يعرفه إلا من نسج الخيال.
شكراً لكما على وجودي.
شكراً لكما على حبكما.
وشكراً له.

* * * *

## الأم

كبر الطفلان. وعدنا إلى مِصر.

تغيّرت حياتُنا بعض الشيء.

تعرّف إلى زوج الخالة الشمطاء الذي علمه أن الرجل مكانه خارج بيته.

عرفنا الشجار لأوّل مرّة.

كما أني انشغلت بين أمي المريضة وأختي القاصر.

كان رُعبي أن أُضطرّ يوماً إلى الاختيار بين أمي وبينه.

فقد اخترته من قبل.

وربما كان رُعبي من أضغاث أحلامي، لكني عشته واقعاً.

لذا دعوت الله أن يرحمها ففعل.

* * * *

## الأب

تغير الكثير في واقعنا.

فقد ضاع الكثير.

ألم يقولوا إننا سنرمي إسرائيل في البحر.

ردّدوها على مسامعنا حتى تشبعنا بها يقيناً.

ثم حدث الصدام.. ورمتنا إسرائيلُ في ستِّ ساعات.

لن تعرفي مذاق الذل الذي عشته حينها.

ذل، وخيبة، ودمار.

هزيمة أسموها نكسة وفي التسمية وَكْسة.

لكنّ الهزيمة علقت بنفوسنا.

أصبحت دمَنا الذي يجري في شراييننا.
أصبحتِ الهواءَ الذي تتنفسه صدورُنا.
فتحولنا إلى هياكل بشرية تمشي منحنية.
مهزومة.
سموها نكسة!
ما أبجحَهم.

# نافذة

**الأم**

ثـمَّ اخـترقـتُ لأول مـرّة حـاجـزَ الـزمـن، وأشـرفـت عـلـى نـافـذة المستقبل.

رأيتُ ذلك الرئيس يُقتل هو وأخوه قبل أن يقتلا.

وحذرتُ زوجي وبعضاً من مقربيه فلم يصدقوا.

ولمّا قُتلا فعلاً بُهت الجميع.

ثم رأيتُ فيما يشبه الوحي ذاك الرئيس يُقتل من على منصة.

وقلتها مرّةً أُخرى فلم يحرّكوا ساكناً.

ثُم قُتِلَ وهو على المنصة.

فأصبحت أرى ولا أحكي.

فما الفائدة من الحكي مادام المحتوم سيحدث رغم التحذير.

* * * *

**هي**

كيف أُفسّر نبوءاتك؟

كأنك اخترت أن تلعنيني حتى بصدق تجلياتك.

ذلك أني عندما بحثت عن تفسير عقلانيٍّ لرؤياك لم أجده.

لعلها شفافيتك الطاهرة التي مكنتك من قراءة ما يحدث قبل وقوعه.

أو لعللكِ لم تمرضي قط، بل كُنّا نحن المرضى.

ولذا لم نتقبلك ولم نصدقك وقلنا مجنونة.

ثم كففتُ عن التساؤل لأُريح عقلي.

وفي راحة العقل موت.

* * * *

ثم إنها لم تتنبّأ بموت ذاك الرئيس أو هذا.

بل تنبأت بموت الوطن.

يا حسرتك يا وطن.

فجأة حط جنون الانقلابات والاغتيالات علي خارطة العرب.

أردنا أن نغتصب الثورة وننتهكها. هتكنا عذريّتَها، وتناوبنا عليها، ثم مثّلنا بجسدها وسحلناها بعد ذلك مليون مرة.

كم من رئيسٍ حطَّ على قلبِ اليمن؟

وكم من انقلاب أحطّ من قدر العرب؟

يا فضيحة العرب.

# سجن!

في السجن عرفت القاسم المشترك الذي يجمع بين السيجارة والكهرباء والقِنّينة.

وفى السجن اكتشفت أن جسدي يمكن أن يتحول إلى ركوب للرجال.

وأنا رجل. أو كنت رجلاً في سابق الزمان.

وفى السجن اقتنعت أن الإيمان كفر، وأن الرأي جريمة، وأن الصدق مصيبة.

وتعلمت أن الأسلم أن لا أكون.

اكتشفت حقائق الوجود، وراء القبضان، وتقيأتها كُتلاً من ديدان شيطانية، ظللت أجترّها حتى تحولتُ إلى دودة.

دودةٍ صغيرةٍ عمياء.

ولم تكن لي جريمة يوم دخلت.

أو هكذا ظننت.

لكنَّ ترحابهم بي أجبرني على تصديقهم. هم بالتأكيد يعرفون أكثر. ولعلهم يعرفونني أكثر من معرفتي بنفسي.

ولولا قيح الجروح لعبّرت لهم عن إعجابي بأساليبهم العلمية في استخراج المعلومات وإثباتها.

وحتى يوم طالبوني بأن أردد: «أنا امرأة»، رددتها بتبتّلٍ عابد. ومن يدري لعلّي كنت دائماً امرأة في ثوب رجل.

اكتشفت كلَّ هذا في الزنزانة، يوم دخلت عالم الغيب.

فجوة زمنية داخلها مرايا كلما دقّقت النظر فيها لم أرَ سوى فراغ.

كنت لا شئ، مجرّد لا شئ.

ومع تساقط اللحظات والدقائق ذابت قناعتي ببياض صفحتي على الجدران السوداء،

سالت كما يسيل الدمُ من عنق الذبيحة لحظةَ نحرِها.

ووجدت نفسي تلقائياً أؤمن بجريمتي.

اقتنعت بها أكثرَ من اقتناع جلادي. بل إنني وأنا أقبل قدميه توسلت إليه أن يصدق جريمتي، وأن يرحمني من النكران.

لعقت حذاءه وقلت له أنا مجرم.

أقسمت له، إني لا أؤمن بأيِّ شئ سوى جريمتي.

ثم صممت وقلت له إنني عضو في جماعة إرهابية،

ولولا أن الزمان غير الزمان لقلتُ له إني شيوعيٌّ من الكفار.

ثم لعنت الوجود عندما طالبني بالإثبات. حرت في الجواب!

قلت له أنت أدرى. فلم يرحمني

حاولت إقناعه بأنَّ الاعتراف سيّدُ الأدلة، لكنّه صمّم على الدليل.

وأنا لا أفهم كثيراً في الحساب والفيزياء.

لكني جربت كيمياء الألم. حسبتها بسرعة في ذهني وقررت أن أقدّم إليه الإثبات.

اعترفتُ على أُمّي وأبى وأهلي وأصدقائي.

ولولا أنني غير متزوج لاعترفت على زوجتي أيضاً.

وهل هناك فائدة من النكران؟

فلو كنتم مكاني لفعلتم ما فعلت.

ولذا تجدونني اليوم، بعد أن خرجت من الغيب وتجرعت الدرس، أرفع يدي بالتحية والإجلال لكلِّ عسكري مار. وأبتهل أمامه أن يحفظ النظام ويديم العمار.

وأؤكد لكلِّ من يُصافحني أنني مجرم.

ثمَّ أدعوه إلى تجنبي والفزع منّي...

ذلك أني إذا اُضطررت

سأعترف عليه يوماً إذا عدتُ وراء القضبان.

# الخوف

**الأب**

لا أزال أذكرُ ذلك اليوم جيداً.

كانت البلاد تعاني،

غليان وخوف،

شيوخ القبائل غاضبة ودولة جارة كارهة،

ورئيس محبوب لكنه يحكم بالسيف والنار.

وكنت قد عدتُ من مِصر مع أُمك وأخيكِ وأنتِ.

أو بالأحرى استدعوني لأن أرائي وصداقاتي لم تعجب الكثير منهم.

وتركوني بلا عمل.

فلم أعبأ.

بل انشغلت أنا وأُمك ببناء الطابق الثاني من بيتنا.

كان الزمانُ غيرَ الزمان.

ضاعت بداوة السنين الأُولى للثورة، وتلاشت البراءة.

ودخلنا في مرحلة أصبح التعذيب إحدى أدواتها.

ولذا ذاع صيتُ رئيس المخابرات،
أصبح مشهوراً لأنه عُرف بالسادية.
كان مضرباً للأمثال،
فالرجل كان يتلذّذ بتعذيب المعارضين،
كان يشارك في جلسات التعذيب بنفسه،
ويذيق المنكوبين منهم ألواناً شيطانية من الألم.
يا الله.
ويا ذلَّ الرجال.

* * * *

في ذاك اليوم كنت أقف أمام باب بيتي أراقب العمال وهم يحملون الأسمَنت والحجر إلى الداخل.
ورأيته.
رئيس المخابرات.
وقف فجأة أمامي، كأنه إبليس خرج من باب جهنم.
وبُهِتُّ.
نعم.
عَرفتُ طعم الخوف يومها كما لم أعرفه في حياتي كلِّها.
شعرت بمذاقه قوياً مرعباً كما لو كنت قد تجرعته تجرعاً.
لعل الدماء فرت من وجهي،
ولعل عينيّ زاغتا،
ولعلّي ارتجفت.
فأنا لم أرَه هو فقط، بل شاهدت معه غرفة التعذيب وأدواتها.

حياني، فرديت التحية.

وسألني عن أحوالي، فغمغمت بكلام لم أسمعه.

وكان يبتسم في كل ذلك.

وصدقيني أني نظرت إلى أسنانه ورأيتها قد تحولت أنياباً.

شاهدتها فعلاً، بارزةً حادّةً وبشعة.

قلت لنفسي إنَّ ما يفعله كلَّ يوم هناك في مقر الجحيم قد حَوّله إلى وحشٍ، فكان لا بدَّ من الأنياب.

وبينما أنا بين أنيابه ومعنى زيارته، حيّاني مرّةً أُخرى، ومشى راحلاً.

تركني مع خواطري المحمومة.

ولم أنم ليلتَها،

فقد انتظرت رجاله، في كلِّ ثانية كلِّ دقيقة وكلِّ ساعة، طوال الليل.

انتظرتهم، ويدي على قلبي.

لكنهم لم يأتوا.

الحمد لله أنهم لم يأتوا.

# ثم حدث الشرخ

**هي**

زرنا الخالة الشمطاء، أُمي وأنا.

كنتُ في الحادية عشرة من عمري.

بدتْ أُمي في بهاء صاف من جمال إلهي.

كانت هكذا دائماً. ملاكاً في الروح والجسد.

وتلقفتها عينا الشمطاء بحسد. فالجميلة كانت في عنفوانها مثلاً يُضرب عن السعادة الزوجية. زوج لا يزال يُحبُّها، وطفلان ذكيان، وبحبوحة من العيش.

سألتها العجوز عن حالها. فأجابت بسعادة أنَّ أبي نُقِلَ إلى بلاد المغرب الأقصى.

فردتِ العجفاءُ بخُبث: «بلاد جميلة لكنَّ نساءها أجمل».

فتبدت غشاوة من قلق في حدقتيّ الحسناء.

وأردفت العجوز «بعضهن عُرفن منذ الأزل بخطف الأزواج».

فانسلخت نفسها من نفسها.

«لكنْ لا تخافي»، قالتها العلقة «فزوجك يحبك».

السُّمُّ سَرى، ونصف ابتسامة الشمطاء عَلقت بشفتيها كدودة.

* * * *

أتعرف متى فكرت في الانتحار أوّلَ مرة؟

آنا لا أذكر جيداً.

لكني أعرف أن فكرة الموت دارت في خاطري عشرات المرات.

أعجبتني كثيراً.

فقد اكتشفت أن العاقلين منا من البشر هم أكثر الناس لجوءاً إلى الانتحار.

ربما لأنهم ضاقوا ذرعاً بأنفسهم، فالنفس لعنة إذا عرفت طريق التفكير.

ولعلهم عايشوا الحياة فلم يتبدى لها معنى.

أو لعلَّ المعنى كان مخيفاً فلم يصدقوه.

ألم يقل سالجادوا إنه قد تكون مخيفةً الإجابةُ عن السؤال: «هل نعرفُ حقاً طبيعتَنا»؟

دعك من الإجابة عن هذا السؤال فإجابته متاهة، وركز معي فأنا لم أستقرَّ على وسيلة معينة للانتحار.

تسألني لماذا؟ ستسخر مني عندما أُجيبك.

أنا أعشق نفسي كثيراً وأخشى عليها من شكة دبوس.

لكنَّ الفكرة كفكرة تُعجبني.

فهذا الغثيان يصيبني بالدُّوار. يقرفني. يقلب أحشائي ويدفعني إلى التقيّؤ.

واليوم حدّقت إلى شرايين يدي وكدت أفعلها، استمرأت الخطوة وتجليتها أمامي وكدت ألمس العدم. لكنّي لم أفعلها.

تسألني لماذا من جديد؟ غريب سؤالك. فمن تحرص على نفسها من شكة دبوس لا تقطع شرايين يدها بالتأكيد!

آهٍ يا جدتي، مَنْ أنا؟
أُعطيك نِصف عمري لو جاوبتِني.

* * * *

**الأم**

وبدأ يسكر. كان يبتلع القنينة بجنونِ يائس.
وعندما تلعب الخمرة برأسه كان يبكي أحياناً،
كطفلٍ فقد أُمَّه.
وأحياناً أُخرى كان يشتعل غضباً ويلعن الكون والوجود ومَنْ فيه.
وفي لحظات يأسٍ كان يقذف غضبه علينا، أنا وابني.
لم يمدَّ يده علينا،
لكنَّ لسانه كان يمتدُّ علينا.
أين أنت يا رب؟

* * * *

**هي**

ورحمني من غضبه، لكن هذا لم يشفع لي عند نفسي.
فكنت أرقبه وأرقبهما وأنا صامتة.
ورجع صدى أنيني هديراً.
وتمنيت أن أكون معهما.
أن ينالني من سخطه ما نالهما.
لكنه أبى إلا أن يلعنني برحمته.

# الأب

مَنْ أنتم حتى تُحاكموني؟
حاكموا الوجود إن أردتم، فهو المذنب لا أنا.
تلومونني لأني وجدت في الكأس عزاءً؟
تلومونني لأني غبت عن الوعي عامداً؟
لأني سعيت إلى الغيبوبة سعياً؟
عن أيِّ وعي تحدّثونني؟
أين وعينا؟
غاب مع النكسة.
احترق مع اللامبالاة.
تهشم مع مَنْ باعوا لحم الثورة.
ضاع.. تلاشى..
ثم أنتحر أمام عيني
أصبح الحُلم نجساً...
هتكته أيادٍ قذرة.
ورأيته أمام عيني كلَّ يوم وهو يختنق ثم يموت.
آهٍ يا وطن.

ومعه تقولبنا إلى طوابير من أشباح مكسورة.
منزوية... خائفة،
ترتعد من ظلها.
مهزومة،
تبحث عن الطريق.
ثم يأستْ
فَكفّتْ عن البحث عن الطريق.
ولأن الطريق تاه منا تُهنا عن أنفسنا.
لا تلوموني.
كانتِ الكأسُ أرحم.

* * * *

**الأم**

ثم لاحظتُ جمال سكرتيرته. كانت معه في كلِّ خطوة.
وفي كلِّ خطوة كنت أسمع ما قالته الشمطاء. لم أنسَ تحذيرها.
وقتلتني الوساوس.
اقتنعت بخيانته.
وكنت أنظر في المرآة وأرى الزمن يزحف على وجهي فتأسرني الكوابيس.
لم يكن لي أيُّ معين على الحياة سواه.
وإن هجرني تُصبحِ الحياةُ رعباً.
لذا واجهته بالخيانة.
قلت له إنه خائن. فاتهمني بالتخريف.

وسلّطت عليه أبناءه، فقال: «فقدت القدرة على التمييز».

* * * *

واستيقظتُ على هاتفه. هاتف الله.

قال لي: «قُومي يا ملك، صلّي إلى ربِّك».

فزعت في البداية.

دفنت جسدي في الفَرْش، وقلت إنه حُلُم.

لكنَّ الهاتف لم يتركني.

دعاني من جديد: «قُومي إلى الصلاة يا ملك».

فلم أملك إلاّ الطاعة.

تسللت من الفراش، وصليت دون وضوء. ووصلت بصلاتي ما انقطع بيني وبين الربِّ منذ عقود. غير أني قطعتُ بذلك همزةً كانت تربطني بزوجي.

* * * *

واستمرّ مسلسل الشجار بيني وبين زوجي.

وكانت صلاتي المستمرة زيتاً صببتهُ على نار.

ولأن زوجي رفض طرد سكرتيرته، انكفأت على القرآن علّه يعزيني. فوجدت الخلاص.

ولأن الله اختصني بهاتفه فقد عرفت قيمتي.

وعرفت أيضاً أن زوجي لا يعرف قَدري.

وازددت اقتناعاً عندما اكتشفت في لحظةِ تجلٍّ أنَّ ملك الجن والإنس أحبّني، وأنه رغب في الزواج بي، وأنه فعلاً عقد قرانه عليَّ في السماء، وكان الشهود الملائكة.

ورغم حُبّي لأبنائي إلا أني لبّيت نداءَ الرب.

زوجي هو الخاسر لا أنا. فملكي سيغنيني عن الدنيا وما فيها.

وهو وعدني بكنوز سليمان، لكني اشترطت عليه عندما حدثني أن نجعل من حبنا سبيلاً لنصرة الدين.

وقلت لله إني سأقدم حبي إلى أولادي قرباناً له.

* * * *

**هي**

أزعجتني حكايةُ القربان هذه.

أحبّي الله كما تشائين لكن لا تقحميني في الموضوع.

فمن كانت في الثالثة عشرة من عمرها لن تفهم مبرّر نصرة الدين على حساب خَسارة أمّها.

ملعون أبو النصرة والقضية والدنيا وما فيها،

أُريدك أنت.

فقدتك في ذلك العام، والى اليوم وأنا في الحادية والثلاثين لم أجدك.

وهناك لحظات شعرت فيها بغضب جنونيٍّ تمنيت لو قذفته سهماً على وجه ذلك الهاتف المُقدّس.

ولو تجسد أمامي لما تردّدت في شنقه وطعنه وقتله وسحله وتقطيعه إلى فتات..

أريدك أنت وقد خطفك منّي...

فمتى أجدك؟

* * * *

وتركتنا.

واجهت أبي بالقول إنها تُحب غيره. قالت له: «أكرهك».

والعجيب أنه صدّق فعلاً خيانتها.

أليس غريباً أن نصدّق الهذيان؟

لكن ملكها كان له اسمٌ معروفٌ وربما صادفاه يوماً في حفلة استقبال.

فوهبها الطلاق وهو مجروح.

وقلت لها وداعاً. فدفنتني في صدرها وقالت: «إليك يارب، وداعة بين يديك». ثم مضت.

استقلت السيارة في اتجاه المطار ودموعها تلاحقني.

وكرهتها.

كرهتها كما لم أكره بشراً. حقدت عليها. وتمنيت أن اقتلها.

ولم أجد تناقضاً في كرهي هذا ودعائي المتواصل إليها كلَّ ليلة.

كنت أحتضن الوسادة وأتخيل صدرها وأناديها.

ثمَّ استيقظ والعنها.

* * * *

وسمعت فيما يُشبه الحُلم أن أُخوتها سفّروها عنوةً إلى مصر.

كبّلوها وجرّوها إلى الطائرة، وعندما قاومتْ خدّروها.

ادخلوها في مستشفى المجانين.

سجنوها هناك وتركوها.

وحاول أبي أن يمنعنا من السماع، لكن الخبر أصمّ آذاننا.

وما يذهلني اليوم، أننا، أخي وأنا، لم نحاول يوماً أن نذكر اسمها.

كنا نتحدث عن كل شئ إلا عنها.

كانت حقيقةً غائبة.

تجاهلناها،

كأننا يتيمان رغم هيمنتها على نفسينا.

* * * *

ولم يقدر أبي على تركها هناك.

حدثها فطلبت الرجوع.

فسافر إليها وردّها.

فجننتُ فرحاً.

* * * *

شهور السجن أعادتها إلى الواقع.

لكنَّ شرخاً كان قد حدث.

هوة ساحقة فصلت بينهما.

هو أقنع نفسه بأنه إنما ردّها رحمة بها.

وهى رأته يتباعد فاقتنعت بذبولها.

احترقت في نفسها.

لم أعرف حباً مثل حبهما.

كابوس من جوف الجحيم.
شعلة من نار التهمتهما وتركتهما رماداً.

* * * *

ونزل عليها صمت الدهور.
أصبحت تمثالاً من حزن.
ولم أفهم.
كنت أستجدي حنانها كجرو يتمسح بذيل صاحبه.
اذهب إليها متلصصة وأرقبها،
ثم اقترب منها،
وأقف أمامها،
أحاول أن أُسيطر على عينيها.
أُحاول أن أدخل فيهما، أن أرى نفسي فيهما.
ولو حدث هذا لَقّبلت قدميها.
غير أني لم أجد سوى الصدى.
فاقتنعت بأني أكرهها.

## المرحلة الثانية

# هي والحلم

# ضاعت الذاكرة

كم مرَّ من السنين؟ أربع أم خمس؟ لعلها خمس سنوات.
خمس سنوات جفّ فيها قلمي.
ذبحت نفسي على تلك السطور ثم تركتُ دمائي تجفُّ عليها.
وهجرت القلم
تركته يتلوّى ويختنق برغبته.
خفت منه. ثمَّ كرهته. وتبرّأت من حبره وكلماته.
قلت ما الداعي إلى فتح الجروح القديمة.
قد فات ما فات.
وأنتِ هي أنتِ.

* * * *

ثم فقدت ذاكرتي فجأة.
كأنها اغتسلت من حروف الماضي.
ضاعت هي الأُخرى في الطريق.
تاهت مني بين السطور.
ولعلّي تركتها هناك عمداً.

عليك اللعنة أيتها الذاكرة

* * * *

كنت كلما حاولت أن أتذكر. . . لا أستطيع.
وأقول لنفسي أين غضبك؟ ولا أجده.
شعرت بأن خيوط عقلي رُبطت بعقدة مُحكمة وتأبى أن تَنِزَّ ذكرى واحدة.

عليك اللعنة أيتها الذاكرة.

* * * *

واسترحت.
أه. ما أجملَ الحياةَ دونَ ذاكرة.
ما أجمل أن تعيشَ كالأبله بصفحة بيضاء بلا ماضٍ تبكي عليه.
بلا حزن. بلا أنين.

عليك اللعنة أيتها الذاكرة.
ألفَ ألفَ مرّة.

* * * *

أبت إلا أن تطاردني. لاحقتني. . . في المنام واليقظة.
كانت تعرف أني ألعنها في القيام والقعود. لكنها لم تَكِل.
آهٍ منها. آهٍ منك ومنه.
عليك اللعنة أيتها الذاكرة. . . ألفَ ألفَ مرّة.

# هل همد البركان؟

هل تشعر بقلمي كما أشعر به؟
لا يتزحزح إلاّ بالقوّة.
حجر ثقيل يأبى أن يتحرّك على السطور.
هل تشعر به كما أشعر به؟
هو الآخر فَقَدَ ذاكرتَه.
هل خمد؟ أم همد؟
هل ضاع عُنفوانُه؟
أم لعلّه فَقَدَ غضبَه وتمرّدَه فأصبح مؤدَّباً!
يا مصيبته.
كم أكره الأدب.
باسمه ننافق ونكذب ونُجاري... ولا ننطق بكلمة عند النحر.

* * * *

هل تريدُ مني أن أقصَّ عليك قِصّةَ الحاضر؟
عمَّ حدث خلال تلك السنوات الخمس؟
حدث الكثير.

لكنَّ الأهمَّ أني تصالحت مع نفسي.
فأصبح قلمي ليّناً... مُطيعاً... وهادئاً.
يا خسارته.

* * * *

وربما تصالحت معه أيضاً.
سمّوه ما شئتم.
أنا أُسمّيه الرّحمنَ وكفى.
وصلّوا إليه كيفما أردتم.
أنا أُصلّي إليه بعملي.
وصوموا له بمِهرجاناتكم.
أنا أصوم له بفعلي.
ثمّ إنّي لا أزال على عهدي مؤمنةً بوجودي
لذا سمّوني كما صوّرت أنفسكم... فالأمر لا يَهمُّني كثيراً.
ستلعنونني.. وستقولون كفرت
هل ترَونني خائفة؟
كففت عن الخوف يوم أدركت أنَّ الخلاص من الخوف هو خلاصُنا.
وأدركت أنكم كثيراً ما تعهرون بالدين.
وتقولون ما لا تفعلون.
وتقصّون حكاياتٍ من نسج الأساطير..
ثمَّ تصدِّقونها.
عليك اللعنة أيّتها الذاكرة.

# أيّ حكاية؟

«قُصّي حكايتي على الكون».
كم مرة قلتِ لي ذلك؟
واليومَ أدركت أنَّ الكونَ ليس حكايتَك.
وأنَّ أنينَ عينيك.. هاجسي.. ليس المشكلة.
وأنّك العَرَض لا المرض.
وأن القِصّة أكبرُ منك... ومنه... ومنّي.

* * * *

«كانت الأكفأَ بيننا».
«كانت الأفضل»...
«نعم... كفاءة ومقدرة وذكاء متّقِد».
ثم...
كرهتها سكرتيرة الرئيس.
ولأنَّ كلامَ الليل مدهون بمرهم يَغْشَى على العقل... انقلب في الصباح على أكفأ شخص في مكتبه.
أصبحتْ بلا كفاءة.
أصبحتْ نكرة.

أصبحتْ لا شئ.
ففقدت عملَها...

* * * *

لم يكن بوسعنا أن نفعل لها شيئاً.
«كذب».
كانت أيادينا مُكبّلة.
«بل كنّا منافقين».
كنّا سنفقد عملنا.
«بل كان الخوف يُكبِّل ألسنتنا»
وكان العجز خوفاً.

* * * *

لم تكن هي المشكلة.
كان وجودها مزعجاً.
لكنَّ الذي أخرجها هو العَرَض... لا المرض.
عليك اللعنة أيتها الذاكرة.

# وفي المهجر قِصّة . . .

إذن كيف رأيت قلمي؟

مات؟

لا . هو لم يمت .

لكنه جاءك بحلّةٍ جديدة ،

وبروحٍ غيرِ غاضبة .

يحكي لك الحكاية نفسَها بفصولٍ مختلفة .

ألم تلاحظْ أنّ الكتاب كتابان؟

وأن القِصّة قِصّتان؟

وأن الحكاية حكايتان؟

* * * *

ثمَّ ألم تفهم أنّ طلاسِم اللُّغز ليست في عينيها . . . بل في وعيك أنت؟

وأنّ أنينها مرآتُك؟

وأنك وهي في مصير واحد؟

ولأنَّ خلاصها كان جنوناً . . .

فإني أسألك أين خلاصُك يا ترى؟
أهِ يا ويكا... لو أن لي عصا سحريّةً تضع النِّقاط على الحروف.

* * * *

لعلك تذكر...
يومَ قلت لك إني نِصفُ هُويّة ونِصفُ طريق!
اليومَ أقول لك... أنا الهُويّة والطريق.
أتدري كيف عرفت ذلك؟
عندما عشت في المهجر فترةً أطولَ من حَبْل انبهاري به...
عندما اكتشفت أن صاحب المهجر لن يقبلني إلا إذا كنتُ هو!
وأنا لست هو...
ولا أُريد أن أكون هو...
عرفت نفسي من قريني.
وفهمت.
فهمت أنَّ لي ماضياً أفخر ببعض جوانبه... لكنّ حاضري مُخزٍ
هذه هي هُويّتي.
وأنَّ المستقبل شاقٌّ ومُتعِب... لكنّه رهن عملي.
هذا هو طريقي.
هل فهمت؟

# أكثر من هذيان

أشتاتاً مشتوتاً، حي.

أشتاتاً مشتوتاً، حي، حي، حي.

ارتدِ جلابيَتك، وتسلّحْ بمسبحتك، وعلّقْ كتابَك على صدرك، ثمَّ اندسَّ بين الجماعة.

هُزَّ رأسَك، وتمايل مع وقْع الطبول، واصرخ بملء فمك: حي، حي.

ولا تنظرْ إلى مَنْ حولك.

حذارِ من التحديق إلى غيرك.

اكتفِ بالتمايل مع المتمايلين، والصراخ مع الصارخين.

وافعل كما يفعلون، لكنْ لا تُحدّقْ إليهم.

لا تفكّر. كُفَّ عن التفكير.

أشتاتاً مشتوتاً، أشتاتاً مشتوتاً، حي.

عقلك ليس ملكَك. هو ملْكٌ لهم. وأفكارك ليست لك، فهي وقْف لهم.

اهتزّ. هُزَّ جسدك بعنف، وقُلْ معهم: حي.

وحذارِ من التفكير.

روّضْ لسانَك على عباراتهم، وطوّع مخَّك على التخدير، وإذا قالوا لك إنَّ الحقَّ إلى جانبهم. فصدّقهم.

وإذا لعنوا الدنيا ومَنْ فيها، فالعنها معهم.

ولا تُجادِل، فالحقُّ، كما يقولون، معهم.

وافعل كما يفعلون.

ارفعِ الكتاب في وجهِ مَنْ يجادلك وقُلْ له أنا الحق.

وإذا لم يقتنع فاقطع لسانه.

وهم سيباركونك.

اقرأ التاريخ كما فسّروه، وابكِ على ضريح ماضٍ هم اختلقوه، ولا تُناقِش.

عليك اللعنة إنْ فعلت.

شدّدِ الطوقَ على زوجتك، وأُمِّك، وأُختِك.

كفّنهنَّ بنسيج من كلمات الحق: حقِّهن.

واقتطعْ لهنّ من كَفَنَهِنَّ فجوةً في العين اليسرى ليرين الحاضرَ كما تراه.

ولقّنهن دروسَ الواقعِ قطرةً قطرة...

فعقولهن، أنت أدرى، لا تحتمل.

أشتاتاً مشتوتاً، «فص ملح وذاب»، أشتاتاً مشتوتاً، في الشتات نام العقل ومات.

تمايل أكثر.

طوِّحْ رأسك بشدّة.

أنا لا أراك متحمِّساً كفاية.

ثمّ لا تفكّر،
لا تفكر،
عليك اللعنة إنْ أنت فعلت.

* * * *

هل فهمت؟

* * * *

«ما الذي تنتظرينه حتى تتحجّبي»؟
قالها الداعية وقلبه يكاد ينفطر أسى.
«لِمَ كلُّ هذا التردد يا أُختاه. أليس الحجاب ثمناً رخيصاً لرضاه»؟
غطّي شعرك؟
أو كفّني جسدك وحبّذا لو كان عقلُك معه؟
«آن الأوان لأن تعودي عن المعاصي... تحجّبي يا أُختاه».
ما أجملَ هذا الداعية.
تَرَكَ كلَّ الفواحش التي تُرتكب على وجه البسيطة.. وصبَّ همَّه على شعر المرأة.. على جسدها.
تركَ الظلم. تركَ القهر. ترك القمع وحكمَ الواحد وركّز على شعرها.
كان الشعرُ أسلم. كان الشعرُ أسهل. ثم إنه كان أَأْمن.
ما لك وعورتها؟

غطي عورتك الفكرية أولاً.

* * * *

هل فهمت؟

* * * *

أنا لست سوى عدسةِ تصوير... فارغةٍ
تلتقط الصّور الواحدةَ تلو الأخرى
كما هي..
من دون تمييز... من دون تدقيق
ثمَّ تبصقها في كلمات على الورق
فهل يعجبك ما تراه؟
ثم إنّي آلة تشفير
فككتْ رموزَ عينيها وعينيه... حرفاً فكلمةً فجملة...
وقذفتها على وجهك لهباً من صديد
فهل أحسست بلفحه؟
ثمَّ هل أعجبك مذاقُه؟

# اعتراف

لم أقتنع بمرضكِ إلا يومَ وقفتِ أمامي عاريةً تسألينني كيف يُلبَس القميص.

كان عمري تسعة عشر عاماً...

فهمت يومَها أنكِ مريضة...

لأوّل مرّة...

فلو كنتِ عاقلة لما ترددتِ هكذا أمام القميص

لما خرجتِ هكذا إلى غرفة المعيشة... كما ولَدَتكِ أُمُكِ

ولما تدحرجتِ الكلماتُ هكذا على شفتيك، حائرةً، مترددةً، وخَجِلة

ونزل عليَّ الإدراك... كسَهمٍ من نار

نفذَ من أعلى جمجمتي إلى القلب.

ظللت ألعنك سبعةَ أعوام... ثم اكتشفت أني كنت ألعن المرض

أهٍ يا ويكا لو أنَّ لي مصباحاً سحريّاً يُحيل الدموعَ إلى فرح.

* * * *

لعنة الله على المرض.

لِمَ لا تُشفَين؟
لِمَ لا تكونين أُمي ككلِّ الأُمّهات؟
لِمَ لا تخاصمينني ككلِّ الأُمّهات؟
لِمَ لا تنهرينني ككلِّ الأُمّهات؟
لِمَ لا تربينني ككلِّ الأُمّهات؟
لِمَ لا تدركين أني أمامك كما تدرك الأُمّهات؟
لِمَ؟

# مؤمن!

أنا أكثر الرجال إيماناً بحرية المرأة، بحرّيتِك.
قناعتي بذلك وليدةُ التجربة والإدراك بأهميّةِ دورها، دورِك.
«هلاّ ضاجعتِني في الفراش الليلة»؟

نعم. أنا مقتنع بذلك.
أريدُ منها أن تكون نموذجاً للمرأة المتعلمة المفكِّرة، مثلك تماماً.
أريدُ منها أن تأخذ زمام حياتها بيدها، أن تقرّر، أن تكون فعلاً جزءاً فعّالاً في المجتمع. وأنت خير مثال على ذلك.
«ماذا لو مارسنا الجنس فوق أوراق مكتبي؟ معاً»؟

لماذا نحرمها من قدراتها؟
لماذا نرفض أن نعترف بأنها كيانٌ عاقلٌ كامل، بأنها ليست ناقصةَ عقلٍ أودين؟
«هلاّ رفعتِ الجونلة عن ساقيك قليلاً»؟
فعلاً، أنا لا أفهم طبيعة تفكير الكثيرين من الرجال، لا يرَون في المرأة سوى الجسد، ليسوا مثلي يتعاملون معها ككيان سامٍ قادرٍ وقويّ.

«ما أجملَ ثدييك النافرين. . . ماذا لو ركعت أمامي حتى أراهما من موقعٍ عَلِيٍّ».

أنا رجل مؤمن.
مؤمنٌ بحرية المرأة، حريتِك.
مؤمنٌ بدورِها، دورِك.
وبقرارِها، قرارِك.
وإيماني سيزداد بالتأكيد عندما ترمين نفسك في أحضاني.
فهلّا قرّرتِ؟

# حَيْرة!

هل بدأت تتحيّر؟

لا تتحيّر.

هل بدأت تفقد ملامح الطريق؟

لا تَتُه.

تقول لي إنك لا تسمع أنينَها أو أنينَه الآن، وإنّ الملامح اختلطت؟

وأنا معك.

ولعلّك تريد أن ترميَ السطور في وجهي وتقولَ سحقاً لك ولألغازك.

لكني قلت لك من قبل إنَّ الحكاية أكبرُ منهما ومنّي.

وإنّ القِصّة قِصّتُك.. قبلَنا جميعاً.

ثمَّ قلت أيضاً إني أكره الطرق المكشوفة والأسئلة السهلة والخطوط المحدّدة.

وإنّ اللُّغز أمامك هنا.

فَفُكَّ طلاسمَه. لأنَّ جوابه فيك.

فهل رأيت نفسك في ذاك المؤمن؟

آهٍ ما أجملَه ذلك المتحرّر الأنيق.

# شمس الأصيل

«الشمس تعبدُ جدّتي، ومَنْ عَبَدَ الظلام فلن يرى»!

* * * *

«هل نسيت أنه تزوّج».

لم أنسَ أنه تزوّج.

«هل نسيت أنه طلّق أُمَّك».

كان الطلاقُ طلبَها.

«هل نسيت صُراخَ الليل وشِجارَ الصباح وحقدَ الجنون»؟

كما لم أنسَ كيف تنازعاني، كلٌّ يمسك بي من يدٍ ويدعوني إلى أن أرأفَ به وأقِفَ في صفّه.

«هل نسيت القلم أمسكته لتطعنه به»؟

«هل نسيت صفعته على وجهها عندما ردّته عنها»؟

«هل نسيت الألم»؟

لم أنسَ، فلا تُذكّريني. كأنكِ تدعينني إلى تذكّر شمسِ الأصيل.

«فكيف تصالحت مع نفسك إذن»؟

عليك اللعنة أيتها الذاكرة.

* * * *

مَنْ أنا يا جدتي؟

«أنت أنا. أنت هي. أنت هو. أنت نحن جميعاً. ثم إنك في ذلك الصدى كلّه».

ما أجملَ صوتَك من داخل القبر، غير أنك لم تُجيبيني بعد!

# أُريد . . .

«أُريد أن أكون مثلَك».

قالتها ليَ الطفلة الصغيرة وهي تنظر إليَّ مبهورة.

كم كان عمرُها؟ خمسَ سنوات أم ستّاً؟ كانت صغيرة.

كانت كالبرعم تعمل في دُكّان أبيها. كان يبيع القهوة والفَطور للعاملين في الجامعة.

وكانت تحمل لنا القهوة والشاي والفَطور. تجري بيننا ويداها الصغيرتان تهتزّان من حِملِ الكبار.

وهي تقول لي إنها تريد أن تكون مثلي.

تمنيت لحظتها لو احتضنتها داخل نفسي، لو أخذتها بين ذراعيّ وأقفلت عليها قلبي، لو كفّت عيناها عن صراخها بذاك الأمل الحزين.

يا زهرتي الجميلة ليتك فعلاً تشقّين جدار المستحيل.

فهل ستقدرين؟

هل يتركونَك تدرسين؟ أم إنَّ الفقر، لعنةُ الوطن، سَيدفع أباك دفعاً إلى تزوجيك رغم عودكِ الطري؟

هو يحبك.

أعمى من غاب عنه ذاك الحبُّ في عينيه.

لكنّه قدرُ المسكين، يَذبحُ مَنْ يُحِبّ بحثاً عن القوت القليل.
يا زهرتي الصغيرة ليتكِ فعلاً تعيشين كما تريدين.

* * * *

هل رأيتِها بعد ذلك؟
«غاب وجهُها كما غاب الكثير من الوجوه».
هل سمعت رجاءها من جديد؟
«ذاب صوتُها كما ذاب صوتُ غيرها».
«هل ضاع أملُها»؟
بالله عليك كُفَّ عن الجنون.
يا حسرة الأمل.
مسكينٌ أنت أيُّها الوطن الحزين.

# موت!

ثم متنا لفترة.

وكثيرٌ منا يعيش وهو ميت.

لكنّنا متنا بعد أن عادت إليه من جديد.

عادت إليه وعاد إليها.

كأنه لم يتزوّج، كأنها لم تتطلّق، كأنهما لم يشنقا حبَّهما بحِبال الكُره أمامَ عيني.

كأن ما عايشته من صراخ كان هذياناً من خيوط سراب.

فعلام كان الزعيق والصّياح إذن؟

* * * *

وحطّ الصمت.

أربع سنوات من الصمت في بلاد النّفط والأسمَنت.

هدوء وسكون وفراغ.

لو سقطت إبرة لكنت سمعت وقعها لدينا.

لو دبّت النملة على الأرض لكنت سمعت وقع خطاها هديراً في بيتنا.

تمثالان صامتان. هو هدّته الخيبةُ والأسى وهي هدّها المرضُ واليأس.

كم كان صدى ذلك الصمت مؤلماً يا أمّي.

كم كان صداه حزيناً يا أبي.

* * * *

لعلّ الصمت كان سلاماً.

لعلّ الصمت كان أماناً.

لكنّه كان عاجزاً،

كان يائساً.

# تديّن بالألوان!

أهلاً بكَ إلى زمن التأسلُم الشّعبي. أهلاً بك إلى زمن التّديّن بالألوان.

دنيا عجيبة. مليئة بالبضائع والأشكال.

هل ترغبين في شراء حجاب لشعرك أو «جلابية سبور»؟ لدينا كلُّ أنواع الحجابات الملوّنة والمزركشة، اختاري ما تشائين من تلك العباءات: طويلة، أو مفتوحة، وبالتأكيد سيكون شكلك مدهشاً.

أعرف أنه قد حان وقتُ تحجُّبِك.

لعلّك تريدين الزواج! فأصبح من المُستحبّ أن تغطّي شعرك لتُرسلي إشارة إلى فارس الزمان بأن عهد المغامرات ولّى وأنك على استعداد للاستقرار.

أو لعلّ وزنك زاد! تحوّلت ذاتُ الحسن والجمال ذاتُ القدّ الهياف إلى عِجْلٍ من وزن الأفيال.

بالتأكيد أنا أتفهّم رغبتك في تغطية جسمك. رغم أني على قناعة بأنّ الحجم لا يصنع الإنسان. لكننا في زمنِ عارضاتِ أزياء من وزن الريشة.

من حقِّك إذن أن تتحجّبي، فما رأيك بهذه العباءة الفضفاضة.

حَجبتِ جسدك عن الأعين وحصلتِ على رخصة الدين فوق البيعة. صفقة مربحة لك ولنا.

* * * *

أهلاً بكَ إلى زمن التأسلم الشعبي. أهلاً بك إلى زمن التّديّن بالألوان.

لدينا أيضاً أدعية وأشرطة من أنواع مختلفة. على ذوقك أيّها الشّاري.

دعوة للصباح وأُخرى للمساء، وحبذا لو استخدمت هذه قَبْلَ الجماع. لها فعلُ الأعاجيب لو كنت تفهم قصدي.

وهاك هذا الشريط، يلعن فيه الشيخُ الجليلُ الدنيا وما فيها. ويشرح لك طرقَ التكفير ثمَّ التفكير. فهنيئاً لك أيّها الشاري.

أو تراك تريد هذا الشريط؟ هذا جميل أيضاً. دعا فيه الشيخُ على الولايات المتحدة بالخراب والهلاك، ودعا عليك أيضاً إذا لم تتبعه بالكفر والهرطقة. فهنيئاً لك أيّها الشّاري.

ثمَّ ما رأيك بهذه المسبحة؟

مصنوعة من عقيق مرصوص. ثمينة للغاية، تليق بالتأكيد بساعتك المذهبة.

يمكنك أن تُسَبّح بها من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين.

ياي، يالها من مسبحة «جنتلمان».

تليق بك حتّى بعدَ اغتصاب خادمتك، في الليل بطبيعة الحال.

* * * *

أهلاً بك إلى زمن التأسلم الشعبي. أهلاً بك إلى زمن التديّن بالألوان.

أهلاً بك إلى زمن الفتاوى بالإنترنت.

تريدُ أن تُطّلق بعلتك عبر رسالة إليكترونية؟ لا تقلق. تستطيع أن تفعل ذلك مادامت نيتُك صافية.

تريدُ أن تتزوّج عبرَ رسالة إليكترونية؟ حبّذا لو كانت هناك امرأةٌ على الطرف الآخر حتى يتمَّ المُراد.

أو لعلكِ تريدين أن نُفتيك في طُرقِ النُكاح «الشرعية»؟ أو نزع شعرك الظاهر والخفي؟ لا توجدُ مشكلة. لدينا كلُّ أنواع الفتاوى حسبَ الطلب. نرسلها لكم مغلّفةً بأشرطةٍ ملوّنة.

* * * *

أهلاً بك إلى زمن التأسلم الشعبي. أهلاً بك إلى زمن التديّن بالألوان.

زمنِ النطقِ بالشهادتين دون تفكير، وفرضِ النطقِ بها على الغير دون تمييز.

زمنِ «المايوهات» الشرعية و«الكوكاكولا» الدينية.

زمن الدين بلا إيمان والتعّبد بلا وعي.

نعم.

أهلاً بك إلى زمن التجارة بالدين.

دين شعبي بكل الألوان.

نفصله لك على مقاسك، والحساب يا عزيزي سيجمع.

ياي. صحيحٌ أنه دينٌ مستهلَك «جنان».

# رأيته

أتذكر يوم قلتُ إني أُريد أن أرى الله.
قلتُها بحرقة.
اليوم أقول لك أنا لا أريد أن أراه.
ليس يأساً.
بل لأني رأيته.
وعندما رأيتُه أحببتُه.
أتعرف أين رأيتُه؟
رأيتُه في نفسي، فآمنتُ به.
رأيتُه في الحياة، فازددت تصميماً عليها.
رأيتهُ في الزهرة، والطفلة، والبسمة.
فأقسمت بألا أكفر به.
فبالله عليكْ تمعّنْ لوهلة وقُلْ لي من هو ربُّهم؟

# حرّية . . .

«أُريد أن أحيا».

قالها لها.

ورمى بعُرض الحائط عِشْرةَ السنين.

ثمَّ تركها ومضى.

هكذا. . . بعدَ عِشرينَ عاماً من الشراكة والحياة معاً.

هكذا. . . بعدَ سهرِ الليالي وتعبِ السنين، وثلاثة أطفال أصبحوا شبّاناً يمرحون.

هكذا. . . دون تمهيد،

وبلا تقديم.

قالها لها.

ثم نطق بكلمة وداعاً.

«وداعاً يا رفيقةَ الدرب. وداعاً فأنا عازم على الحياة».

وقَفَزَ إلى حضن امرأة أُخرى.

«أريد أن أحيا»؟ قالتها ليَ متسائلة.

«وكيف أسمّي السنوات الماضية؟ ألم يكن حياً آنذاك»؟

* * * *

لم أُجبها.
لكني تأملت وتذكرت.
غيرُه قالها أيضاً.
في حضارةٍ أُخرى ومجتمعٍ آخر.
يريد أن يعيش هو الآخر.
يريد أن يحيا.
وتركها هو الآخر.
فقال وداعاً لرفيقة الدرب.
وقَفَزَ إلى حضن زوجةٍ ثانية.
ولم يكترث.

* * * *

كلاهما خان العهد.
وكلاهما طوّحَ برباط السنين غيرَ عابئ.
وكلتاهما بكت.
كلتاهما ذاقت طعم الخيانة.
طعمه مر كالعلقم.
هنا أو هناك.
لا فرق.

# كيف مات؟

أتذكرُ الطفل الذي مات ونحن نرتِّل الإنجيل والقرآن؟ ذاك الذي أحببناه قبل أن نراه؟

أتذكرُ أبن لحمي وفلذة روحي؟

أتعرف من الذي قتله؟

قتله مَنْ لم يَقُم بواجبه.

قتله ذاك الذي أفتى بصحته.

فمات الوليد،

تماما كما مات الوطن... لحظةَ مولده.

* * * *

كنت إلى جانبها ليلتَها، زوجة أخي النفساء، في المستشفى.

كم كانت الساعةُ لحظتَها؟ لا أدري.

لكني أذكر أنَّ ممرضة دخلت علينا بعد منتصف الليل بقليل، وأومأت إليَّ بصمت أن ألحقها.

خرجت وراءها، ورأيتك تقف شاحبَ الوجه.

حدقت إلى عينيك الزائغتين وشعرت بنفسي تغوص في أحشائها.

انقطعت أنفاسي وأنا أسألك: ما الذي جاء بك إلى هنا؟

وودت لو تمكنت من منعك من الأجابة، ولجمت لسانك بألف قُفل.

لم أرَك في حياتي هكذا حزيناً. أخي.

غير أنك قلتها: «مات الوليد». وأردفت: «عليَّ القيام بالعديد من التدابير، والإعداد لجنازته، لكن ما يقلقني هو ردة فعل أُمّه».

كنت تتكلم ونظراتُك تائهة، ولو قُدّر لي أن أستمع إلى طنين رأسك لانفجرت طبلتا أذنيّ.

وعدتَ تقول لي: أنا قلق عليها. كيف ستتحمل الخبر؟

أقتربت منك لحظتَها وقلت لك: معك حق، لكن دعنا نقلق على ذلك فيما بعد، ماذا عنك أنت الآن؟

لأول مرة تحدق إلى عينيّ بصورة مباشرة، وكما لو كنت مذهولاً قلت لي: ماذا عني أنا؟ أنا حزين طبعاً.

وأجهشت في البكاء، وأنا معك.

بكيت على صدري يومها، أتذكر، لبرهةٍ طالت، ثم تمالكت نفسك، وطلبت مني أن أقطع على نفسي وعداً. قلت لي إنك تريد أن تبلغها بنفسك بموت الوليد. لكنك لن تتمكن من فعل هذا حتى الصباح. وأصررت عليّ أن لا يبلغها أحد بما حدث حتى تعود.

كان ذلك هاماً بالنسبة إليك.

فوعدتك. تركتني عندها ومضيت، وبقيت أنا في غرفتها، أُحدّق إليها وهي نائمة.

بكيت ليلتَها كما لم أبكِ في حياتي كلِّها.

كأنّ الدموع التي جَفّت في عينيّ منذ كنت في الثالثة عشرة من عمري قد تجمّعت لتنهمِرَ تلك الليلة بعد ثلاثة عشر عاماً.

لكني كنت قد وعدتك. ولذا عندما استيقظت زوجتُك، أمرت عينيّ بالكفِّ عن البكاء. وتصرفت بصورة عادية. تمالكت نفسي بصورة أخافتني. حتى عندما غسلت لها شعرَها، وبدأت هي تُحدّثني عن الطفل وملامحه، تجاوبت معها كما لو كان حياً فعلاً.

تحدثت إليها بهدوء، وبرفقٍ حاولت أن أُهيئها للخبر، قلت لها إنّ حالته الصحية لا تزال حرجة، وإنَّ التفاؤل ربّما يكون سابقاً لأوانه.

وانتظرتك حتى عدت، وتركتك معها، وأنا أدري أن كلماتك ستقتلها وهي حية.

شعرت بأنّ السماء تُطبق على صدري، وتمنيت لو تلقيت الطعنة عنها، وعنكما. لو كان الأمرُ بيدي...

آهٍ يا أخي، لم تقتلني ذكرى من شريط الماضي كما هذه الذكرى.

فقد إنكسر فعلاً شيءٌ في داخلي تلك الليلة.

كل الصلابة.. القوة حتى القسوة... تلاشت ليلتَها... وبدأ الجرح النابض يبرز من تحت الجلد الخشن. ولم يكن بوسعي بعدَ ذلك أن أكتم الألم.

كانتِ المسألةُ بعد ذلك مسألةَ وقتٍ فقط قبلَ أن ينفجر الأنين.

# القمقم

ويكا يا ويكا عاد الجني إلى القمقم.

عدت من زيارة إلى الوطن. عدت إلى المهجر في الشمال.

كأني خرجت من فجوة الزمن، وتركت التاريخَ ورائي، وأقدمت على المستقبل لكنّي لا أتنفّس.

ضاع الهواءُ من صدري يا ويكا.

تبخّر كفُقّاعة.

وأنا أختنق.

كأني سمكة خرجت من مائها المالح إلى ماءٍ يخنقها بعذوبته.

يقتلها بنقائه.

كأني نخلة انُتزعت جذورُها لِتُزرع في جليد سيبيريا!

مسكينةٌ أنت أيتها النخلة. وملعونٌ أنت يا جليد سيبيريا.

ما بالي يا ويكا؟

جلدي يتقرّح وأنا أبدله

يتمزّق وأنا أنزِعه

يتهرّأ هو ولحمي النيئ في يدي

كأنّ الجنون وفوضى الزمن أكثرُ صدقاً من هذا الوجود البارد
كأنّ الفوضى حياة.
دمي حارٌّ يا ويكا.
حارٌّ يغلي
لم أشعر بغليانه إلا لحظة دخولي المطارَ هنا.
صدمني ذلك الصمتُ المرتب.. ذلك النظامُ
خنقني
ووددت لحظتها لو هززت وسطي وصفّقت بيديّ وصرخت عالياً: يَمن يا ويكا.
ويكا يا ويكا عاد الجنيُّ إلى القمقم يا ويكا.

# عدنا!

ثمَّ عُدنا إلى الوطن.

ما الذي جرى عندما عُدنا إلى الوطن؟

جرى الكثيرُ عندَ عودتنا إلى الوطن.

هل تريد أن تعرف ما حدث؟

حدث أننا أيضاً عشنا بسلام وصمت.

لكن حياتنا بدأت في الحركة.

حدث أننا التحمنا كلُّنا في صمت.

أنا وأخي نعمل. وأبي تقاعد. وأمي في البيت معنا رغمَ الضبابِ وصمتِها.

أخي متزوج وأنا متخاصمة مع العقد.

* * * *

حدث أنه وأنا كنا نصلّي لله بعملنا.

هو في مجال علوم المستقبل، وأنا في نطاق علوم الحاضر.

ثمَّ إنَّ الوطن نفسَه تصالح مع نفسِه.

فأصبح واحداً.

كان هناك أملٌ يا ويكا.

أمل غريب. رغم الصمت.
أمل وليد. رغم الخوف.
أمل دغدغ مشاعرَنا بأن الخروج من النفق أصبح ممكناً.
بأننا سنحيا رغمَ قتلِنا.
لكنَّ الموتَ كان قدرنا.
ألم يحدث الزلزالُ بعد ذلك؟
مسكينٌ أنت يا وطن الحروب.

* * * *

كأنَّ قدر العربي أن ينحر نفسَه.
أن يقتل نفسَه بنفسِه.
أن يوفّر على الغريب مشقّةَ اغتياله.
أن يكتب بنفسه استمارة موته ويوقّعَ على عقدِ دفنِه وهو يضحك كالمعتوه.
كأنّ قدره أن يكون أحمق.
إذا شققت نافذةً في جدار الماضي وأطللت على تاريخنا فستجد أننا كُنّا دائماً نتخاصم كما تخاصمنا في حرب الخليج.
كنا نقف دائماً صفّين، صفّاً هنا وصفّاً هناك.
كلٌّ يلعن الآخر، ويتهمه بالخيانة.
كلٌّ يقول إنّ الآخر عميل.
كلٌّ يقول إنّ الحقَّ معه.
والعالم يتفرّج.

لا. بعضُهم لم يتفرج فقط.

بل انتهز الفرصة ليُضاجعنا.

ولما قضى حاجته منا قطّعنا سبعة أشلاء. ودفن كلَّ قطعة في قارّة.

ويكا يا ويكا، ليتك تقُصّين عليَّ مرّةً حكايةً نهايتُها جميلة.

# سراب

هل تريد أن تعرف ما حدث في الوطن؟
حدث أكثرُ من ذلك في الوطن.
حدث أني وأخي آمنا كما آمن أبي بأن العمل سِرُّ الوجود.
وأنَّ الوطن فينا، مادمنا فيه.
ثمَّ أدركنا أن كلَّ هذا سراب.
فغبنا مع السحاب.

* * * *

ضربوني بالنِّعال يا عزيزي لأني أتقنت العمل.
قذفوني بالسهام وأشعلوا فيّ النيران ثم طعنوا في كرامتي.
قالوا تزوجت في السّر!
قالوا أحبت في السّر وتزوجت في السر.
فاحترقتُ غضباً. غضبٌ كبركان هادر.
لأني عندما أُحب سأُحبُّ جَهْراً.
لأني عندما أُمارس الجنس سأمارسه علناً.
لأني لا أُمارس الحب في السّر. فما بالك بالزواج في السر.

* * * *

# استقالة

«أريدُ منك أن تقدمي استقالتك». قلتها لي يومَها.

اندفعت أنا خارجةً من مكتبك.

أمسكت بالقلم وخططت على الورق سطرين: «أرجو قبول استقالتي لظروف خارجة عن إرادتي».

وكدت أرميها في وجهك.

وأمسكت بحقيبة يدي أجمع فيها أغراضي.. وأنا أشعر بك من حولي.. تنظر إليَّ وتقول لا تتألمي، وأنا غير مصدقة.

فما الذنب الذي جنيته سوى أني أفنيت نفسي في العمل؟

إشاعة غبية انتشرت، وصدّقها الجميع، ودفعت أنا ثمنَها.

قالوا إني تزوّجت بكِ في الخفاء.

لم يجدوا ما يطعنونك ويطعنونني به سوى هذا الهراء.

قالوا إني أُحبك وإنّي لذلك تزوّجتُ بكَ سراً.

وقد أحببتك فعلاً، لكنْ كأبٍ ومعلّم روحي. لكنه مجتمع لا يؤمن بعلاقة بين رجل وإمرأة إلا ليحشرَ الجِنسَ فيها.

أقفلت أدراجَ المكتب وتركت لك المفتاح.

وابتعدت... أكاد أركض ركضاً.

مضيت بسيارتي أكاد لا أفقه الطريق أمامَ عيني.

ثم انتبهت.

أخذت نَفَساً عميقاً وتحوّلتُ بسيارتي إلى متجرٍ لبيع المجوهرات.

دخلته واخترت خاتَماً تتوسّطه زمردةٌ خضراء وقلادة فيروزية زرقاء. ارتديتهما لحظتها.. وظللت أحملهما على جسدي دهراً.. إلى أن جاء يومٌ استيقظت فيه صباحاً ونظرت إلى وجهي في المرآة ثم نزعتهما عني.

وعرفت يومَها أني تحرّرت.

* * * *

وانهزمت.

انهزمت حيناً.

عندما أدركت أن الوطن يلفظني كما يلفظ البغايا.

عندما أدركت أنه يكشّني كما يكشّ الذباب.

عندما أدركت أني غريبة عنه، رغم أني فيه ومنه وبضعٌ من حناياه.

فرحلت إلى المهجر.

رحلت وأنا أدري أني لن أعود.

غادرت وأنا موقنة أني لن أرجِع.

وداعاً أيها الوطن.

وداعاً لأنك أصبحت لي العدم.

وداعاً، رغم أنك ستبقى دائماً في داخلي وطناً.

# رحيل

كان لا بدَّ من الرحيل.
نعم. كان لا بدَّ منه.
ليس فقط لأن الوطن هزمني.
بل لأني تعبت أيضاً من الصدى.
تعبت من الأنين.
وتعبت من عينيكِ وصمتهِما.
كنتُ مهدودة.

أردت أن اهرب. أن أجِدَ الخلاص. أن أتحرّر.
فرحلت.
رحلت إلى المهجر وأنا مدركة كيف سيكون مصُيرُك.
كنت أعرف ما سيحدث لكما قبلَ أن يحدث.
كنت أعرف أني أبحث عن الخلاص لنفسي وفيه موتُك. فيه قتلُك.
كنت أعرف كلَّ ذلك لكني رحلت.
قلت كفى.

ومضيت.
وكما فعلتُ في كلِّ مرة. لم أبكِ حتى في تلك المرّة.

غير أني على خلاف كلِّ مرة لم أتمكّن من نسيانكما بقوة.
كنتما ظلاً لروحي أينما ذهبت. أراكما أينما حللت.
كنتما شبحي. أقضّ مضجعي.
قتلني حبُكما. لم يرحمني.
كرهت نفسي لأني تركتكما لمصيركما.
حقدت عليها. أردت لها الدمار.
فشنقتها كلَّ يومٍ ألفَ مرّة.
عذبتها. كويتها. نزعت أظفارها.
وغرست شظايا مرآتها المكسورة في كيانها.
لكنَّ الأنين ظلّ كما هو ظِلّي.
كنت أقول له أُصمت. فلا يصمت.
كنت أقول له أسكت. فلا يسكت.
كنت أقول له اخرس. فلا يخرس.
كنت أشتمه وألعنه وأضربه،
حتى إني فتحت فمه وغرست أسناني في لسانه حتى يتّعِظَ فلم يتعظ.
فأدخلت يدي في حلقه وقطعت لسانه،
لكنه صمم ساخراً،
ترك حلقومه يلتوي ليُسمعني حشرجة الأنين.

وكدت لذلك أقطع شرايين يدي مرّة.

نعم.

كدت أفعلها وأنا أحدق إلى عجلات سيارة مرّت أمامي.

وَمضت الفكرة لحظتها، وكاد عقلي يُصدرُ أمرَهُ لقدميّ.

لكني استفقت.

كم أنا شاكرة لأني استفقت.

# رأيتُك

ثمَّ رأَيتك.
وقعت عيناي عليك فظللت أُحدّق إليكَ متأمّلة.
لم أكن مُتسمّرة.
كنت متأمّلة.
نظرت إلى وجهك. ثم إلى يديك.
كم أحببت يديك.
وعرفت في تلك اللحظة أنك لي.
نعم أدركت ذلك حتى قبلَ أن تُدركَ أنتَ ذلك.
اخترتك قدراً لي قبلَ أنْ تفكّر أنت نفسُك في الاختيار.
ولعلك دهشت بعد ذلك.

دُهشت عندما اتصلتُ بك أدعوك إلى لقاء.
ثمّ ذُهلت عندما أدركت أني أدعوك إلى المحبّة.
فقد كنتَ، وأنت الأجنبي، قد خَبرت من قبلُ عاداتِ الوطن.
هناك لا تكون المرأة البادئة، وحتى هنا يصعب على المرأة أن تكون المُقدمة.

لكني كنت البادئةَ معك في كلِّ شئ.

هناك لا يصحّ للمرأة إلاّ أن تكونَ الطريدةَ وتترك لصيادها دورَ البطولة.

لكني لم أُردْكَ لا طريدة ولا فريسة. كما لم أنتظر منك أن تمثّلَ معي دورَ الصيّاد.

أردتك شريكاً. فأقدمت.

لأني يا سيدي اعتدت أني إذا اخترت أردت، وإذا أردت فعلت.

أتذكر يوم قَبّلتني.

يومَها جاء دوري أنا كي أُصاب بالدّهشة.

لأنك اخترت قبل أن تُقبّلني أن تُربّتَ على خدّي.

لأنك اخترت قبلَ أن تُقبّلني أن تمسح على شعري.

لأنك كنت في كل ذلك روحَ الحنان.

ثمَّ قبّلتني.

كم كانت لمستُك طاهرة.

كأنك أدركت بروحك أيّ حيوان جريح يقف أمامَك.

كأنك أدركت بقلبك أني كنت ذبيحة.

ملكتني يومَها بتلك اللّفتة.

ولو أردتني في تلك اللحظة لتركتك تفعل ما تشاء.

لكنك حتى في هذه كنت مخلصاً.

لم تُردْها انتهاكاً. أردتها حبّاً.

ذاب خوفي يا سيدي بعدَ أن وجدتُ فيك السلام.

يا سيدي، دعني أعترف لك أني حتى اليومِ حزينة

حزينة لأني عندما بحثت عن الأمان لم أجده إلا عندَك، وأنت الغريب البعيد، رغمَ قُربِك.

لم أجده عند القريب رغمَ أني أعرف أنه يبحث معي عن الطريق.

لا أثق به.

لا أثق بذلك الذي تسيل الفحولةُ على كيانه.

لا آمن له. رغم أني أُحبُّ رائحتَه.

وأشتهيه كما اشتهى آدمُ التفاحة. وكيف لا أشتهي مثلَ ذلك الفحل الهائج.

بل لعلي مارست معه الحُبَّ في خيالي ألفَ مرّة.

لكنّه رغم اشتياقي لا ينالني.

أتدري لماذا؟

لأن التي تحترم نفسها لا تَهَب ذاتَها إلاّ لمن يحترمها.

وهي في ذلك لا تعاشر إلاّ من كان ندّاً لها.

ومنذ متى كان شهريار يحترم شهرزاد؟

ومنذ متى كان شهريار نداً حقّاً لشهرزاد؟

ولذا، إنْ فعلتها فستكون فعلاً فاحشة.

حزينةٌ أنا يا سيدي، رغمَ أني عرفتُ معك الحُبَّ والسلام.

# لا تَتُه!

هل بدأت تتوه من جديد؟

لا تَتُه.

هل بدأت تشعر بالخيبة؟

أيها المسكين.

هل تشعر بالاكتئاب؟

لا تكتئبْ.

هل بدأت تذوق طعمَ الخيانة؟

طعمُها مؤلم، أليس كذلك؟

وهو مؤلم بالنسبة إليك أكثر لأنك لم تعرفه إلاّ لماماً.

أذقتَه بالتأكيد لغيري من النساء، لكنك أنت نفسك لم تعرفه إلا لماماً.

تقول لي إنك ظننتَ أني أُحدّثك. ثم اكتشفت أني أُحدّثه.

تسألني إلى مَنْ تتحدّثين!

معك حقٌّ من جديد.

فإلى مَنْ أتحدّث بالتحديد؟

إليه أم إلى أبي، أم إلى توأم الروح أخي؟

أم لعلّي أُحدّثك أنت يا مَنْ أشتهيه.
لا تهربْ مني ولا تصفقِ البابَ هكذا في وجهي.
لا تصفعْني بخيبتك.
كما لا تظنَّ بيَ الظنون.
كلُّ ما في الأمر أني كشهرزاد في جعبتي الكثير.
وأنّ لكلِّ حكايةٍ بطلاً
ولكلِّ فصلٍ خاتمة.
ولي في كلِّ هذا صوت، ولي في كلِّ هذا نفسٌ أُحدّثها.
فأنصتْ جيداً وتمهّلْ.
تمهّلْ وأمعن في الحديث.
علّك تفهم...
علك تفطن مع أيِّ شهريار أتحدث.

* * * *

وما دام الحديثُ عن شهريار والاكتئاب، فدعني أتحدّثْ إليك مجدّداً عن ذاك الداعية.
مصيبةٌ هذا الداعية.
كلّما فتحَ فمه يُصيبني بحالة إغماء، بحالةِ إسهال وقرف.
يُتحفُني كلَّ مرّة بحديثه عن التاريخ،
لكنّه في كلِّ ذلك ينعى لي موت التاريخ.
يقول لي ابحثي في الماضي ففيه العِبَرُ كلُّها.
يقول لي أُنبشي في القبور ففيها القيمُ كلُّها.
ثمّ يَحلف لي إنّ حضارتَنا هي الغالبة.

يقول إنّ الغربَ كافِر.

يقول إنّ الغربَ جاهِل.

يقول إنّ الغربَ حاقِد.

وإنّنا نحن المستهدفون.

وإننا الضحية. وإننا مغلوبون.

ثمَّ يستدرك ويقول إنّه لا يكره حضارة الأجنبي.

ويفرك أنفَه وهو يقول.

ثمّ يشدِّد أنّهما مكملان لبعضهما.

ويهرش شعرَه وهو يقول.

ثم يكرّر، علّي أُصدّقه، إنه يلعن ما حَدَثَ في الحادي عشر من أيلول.

ويحكّ أذنَه وهو يقول.

ويبتسم وهو يقول.

ثمَّ يضحك وهو يقول.

ثمَّ يقهقه وهو يقول.

ثمَّ يُخرجُ أحشاءه من كرشه ابتهاجاً بما حَدَثَ في أيلول.

ثمَّ يسألني بعدَ كلِّ ذلك، هل تصدقين؟

# عندما تزوجت

مَنْ قال إنّ الجحيم لا نعرفه إلاّ في الحروب؟

هل نسيتما، كي أذكّركما؟

ولكي أكون صادقةً لستما وحدكما، فقد تعمدت أن أغيب عن الوعي، أن أفقده، وأن أنسى ماحدث في ذلك الصيف، صيفِ زواجي.

نسيته كأنّه لم يكن، وقلت لنفسي: «لم يكن مهماً»، وربّما كان تافهاً، لكن ذكره كان ضرورياً.

أتذكران؟

أنا لن أنسى منظركما، أبي وأُمّي، بعد أن خرجتما من الطائرة.

كنت في انتظاركما، وقلبي معجون بمشاعرَ شتّى.

لم أكن فرحة، كنت متوترةً، أكاد أكون خائفة وكارهةً في الوقت ذاته. أخشى على روحي من أن تتلاشى مع رؤيتكما.

أتعرف إحساسَ المرء عندما يقفز إلى فجوة من الزمن؟ أتعرف إحساسَه عندما تختلط كلُّ المعالم؟ لا شرق ولا غرب بل هما الأثنان معاً. هل جربت مرّةً أن تنظر أمامَك ولا ترى سوى أحشائك وهي تخرج من حَلْقك؟ هكذا شعرت، وكدت في لحظتها أدور وأُولّي هاربةً.

ثم رأيتكِ تمشين وراءه، وتعرجين بسبب كعب حذائك العالي. أضناك الألمُ في الطائرة، كادت قدمُك تنفجر من التورّم.

وإبتسمت ليَ ابتسامةً صرخت فيّ.

أردت أن أذوب، أن أنتحر، أن أتحوّل إلى فُقّاعة، أن لا أرى ذلك التوسّلَ في شفتيك، في عينيك، في إبتسامةٍ خرجت من قلبك مخلوعة.

وأبي، كان كارهاً هو الآخر.

كارهاً لك، نافراً منك، خَجِلاً منك... ومن مرضك، كأنّه يحمل أكياساً من الأثقال على ظهره، يحملك حملاً على ظهره، ويلعنك لأنك على ظهره.

لحظةٌ جمعتنا في المطار، أنا في استقبالكما، وأنتما قادمان إليَّ لتودعاني... لتحضرا حفلَ زواجي، أعادت إليّ ذكرياتٍ اعتقدت بأنها لم تكن، جعلتني أعود إلى نفسي وأتذكّر ما كنت أهرب منه على مدى عامين من الغربة في الولايات المتحدة.

وتمنيت لحظتَها أن تموتا، أو يموت الصدى والألمُ معكما.

* * * *

الأب: «لا أُريد أن تحضري حفلَ زواجها، سيُعيّرونها بكِ. سيقولون أُمُّها مجنونة... مجنونة».

الأم: «لن تمنعني من حضور زواجها، سأُرافقك رغماً عنك، هي ابنتي، لن تمنعني، لستُ مجنونة».

* * * *

قالها لك «مجنونة، سيُعيّرونها بكِ»، صفعك بتلك العبارة، ثمَّ طعنك بها، ومزّقني معك عندما حكيتِ لي ما حدث وانت تجهشين.

ربما لأنّه قال في لحظةٍ ما خجلت دوماً من البوح به... من إنكساري بك.

وأنت جُننت من الفزع، كيف لا تحضرين حفل زواج إبنتك؟ كيف تُحرمين حتى من هذه اللحظة. ألا يكفي أن زواجها يعني رحيلها إلى أرضٍ باردةٍ في الشمال، بعيداً عنك؟ زواجُها كان يعني فقدَها وذهابَها، ليس فقط إلى رجلٍ غريب، بل إلى أرضٍ غريبـةٍ هي الأُخرى.

وتخاصمتما وأنتما تُحدّثانني عَبْرَ الهاتف بعيداً عن قلب الوطن.

فقلتُ لكَ أُريدها معك، فجاءت معك.

* * * *

أيّ زواج أردتما حضوره؟

كان عرساً سيريالياً، لوحة ضُربت بألوان صارخة ومخنوقة.

وأنا العروس، لا أشعر!

روحي منمله، وعيناي عليكما، فزعتان. تنتظرانِ انفجاراً تبدّى فيكما منذ قدومكما.

كأنّكما أردتما أن تُكملا معي حواراً بدأتماه منذ سنين، كأنَّ الكلمات تجمّدت على شفاهكما منذ عامين، وأنتظرتما رؤيتي كي تقولاه لي أنا من بين أهل الوجود.

لي أنا قبلَ أيام من عرسي.

أردتما أن تشكوا ليَ من جديد، وأنا كنت قد تعبت من الشكوى.

. . .

الأم: «يقول ليَ إنّي مجنونة».

الأب: «تعبت من تمريضها».

الأم: «أردت أن أتركه لولا أنه بكى عندما جمعت أغراضي».

الأب: «أصبح الحملُ ثقيلاً».

# لِمَ لمْ تحضر. . .

لِمَ لمْ تحضر؟

تأخرتم عليَّ في ذاك الصباح، صباحِ زواجي المدني.

كنت أنتظركما، أنتما وأخي وزوجته.

انتظرتكم مع زوج المستقبل وأهله.

وتأخرتم.

كان موعدنا عند القاضي الساعةَ العاشرة.

وعندما حلّتِ الساعة التاسعة، أراد خطيبي أن نسبق نحن أوّلاً، وتلحقوا بنا فيمَ بعد.

فرفضت.

وأظنُّ أنه وأهله اندهشوا، كيف سيتم عقدُ الزواج دونَ حضور العروس؟

وأنا كنت أتساءل بالأحرى كيف سيتم الزواجُ دونَ حضوركم أنتم؟

قلت له «اذهبْ أنت وأهلُك، وأنا سألحق بك معهم». ففعل، وهو مُمتعض.

وانتظرتكم، قلقةً.

ثم رأيت سيارة أخي، فيها أخي وأبي. أُمّي لم تكن موجودة، ولا زوجةُ أخي.

أين أُمّي؟ طرحتُ السؤال.

قلتما لي: «لم تتمكن من الحضور».

لم تتمكّن من الحضور؟ أهي مدعوّةٌ لحضور عقد قران ابنة الجيران؟

لماذا؟ سألت من جديد ونَفَسي ثقيل مجروح.

إبتسم أخي، وقال: «أخذتْها زوجتي كي تشتريَ لها ملابسَ تَليق بحفل عرس المساء».

صمتُّ، وإنسجم صمتي مع صمت أبي.

وصلنا إلى المحكمة،

كان زوجُ المستقبل في الانتظار.

دخلنا إلى القاعة،

ووقفنا أمامَ القاضي.. إفريقيّ جليل.

ردّدنا أمامَه قسم الزواج.

وحط على نفسي ثقل تشبعت بمعناه وأنا أقول: في الصحة والمرض..

خرجنا وكلُّنا ابتسامات... بعضُها صادق وبعضُها زائف، وكثيرٌ منها مثقَلٌ بالهمّ.

نأخذ الصور، ونبتسم، وجُزءٌ مني يحترق: أين أمّي؟

تصوّرت أني سأراها بعدَ ذلك، أنها ستكون حاضرةً وأنا أتزيّن عند مصفّفِ الشعر، لكنها لم تكن موجودة، كن صديقاتي وأخواتي من حولي، أما هي فلا.

لم تأتِ إلاّ قبل لحظاتٍ من دخولي قاعةَ الزِفاف، حيثُ سأعقد قراني الشرعي.

دخلتِ عليَّ في غرفتي.. مترّددةً... اجل مترددة...

كأنّه لا حقَّ لك في الوجود هنا... كأنك ضيف ثقيل غيرُ مرغوبٍ فيه.

وكنتِ رغم ذلك مبتسمة، ابتسامة مكسورة وسعيدة. كسرتني معها، هشّمتني، وأنا أنظر إلى عينيك، تنظران إليّ فرحتين مبهورتين حزينتين وذليلتين.

كان عدمُ حضورِك واضحاً، كالشمس في كبد السماء.

كنت غائبةً في اليوم الذي صارعتِ كي تكوني فيه.

جئت من الوطن إلى هنا كي تختفي يومَ زواج إبنتك.

وأنتِ قبلتِ بذلك!

قبلت به راضية.

لعلّك إقتنعت، بأنَّ شراء الثوب المناسب سيُريح إبنتَك أكثر.

ولعلّكِ صدقتِ أنهم فعلاً سيُعيّرونني بك..

ولعلّك واسيت نفسَك بأنّ سعادتي ستكون حقّاً في بُعدِك.

وأنا ياسيدتي تمنّيت وجودك فعلاً. تمنيته بكلِّ ذرة من كياني.

سحقاً للمرض وأثاره التي أكلت وجهك.

سحقاً للخجل.

لكني أردت أن أعيش تلك اللّحظاتِ معك،

معك أنت من دون الناس،

أردتُ أن ترَيني. . .

ها أنا يا أُمّاه قد اخترت رَجُلي، وحدي دون أن يفرضه عليَّ أحد،
ها أنا يا أُمّاه قد اخترتُ طريقي، وحدي دون أن أخشى أحداً،

تمنّيتُ من كلِّ قلبي،
لمرّةٍ. . . لمرّةٍ واحدة،
أن تكوني إلى جانبي، أن أشعر بك أُمّي،
أُمَ العروس،
أنْ أشعر بعينيك وهما تقبّلان وجهي وأنا أنطق بالقسم،
أنْ تُداعباني بحنان وأنا أتزيّن،
أنْ تنظرا إليّ بفخر وأنا أرتدي ثوبَ العُرس.

تمنيتُك يومَها سيّدتي كما لم أفعل في حياتي كلِّها. . .
تمنيتُك أُمّي. . .

# غفران . . .

وركعت أمامَك مرّةً أُخرى . . . أتذكرين؟

بعدَ خمسِ سنواتٍ من المرّة الأُولى.

ركعت أمامَك وأنت تصرخين فيَّ بعدَ زواجي، بعدَ أربعةِ أيامٍ من زواجي،

تقولين إنك لا تطيقينَه، وتبكين،

تقولين إنك لا تحبينَه، وتبكين،

وتقولين إنك لا تريدينَه، ثم تبكين.

وسردت عليّ كيف فضّل الخادمةَ عليك، ولم يطردها كما طلبت . .

كنت تغارين، وكان عادلاً.

وحكيت لي كيف انفجرت فيه يوماً بعد شجار حاد، وقرّرت أن تُغادري بيتك، وأخي يحاول أن يثنيَك عن عزمك،

ودخل هو عليك وأنت تجمعين أغراضك . . .

نظر إليك وبكى، وجلس على الفراش مهدوداً وهو يقول: تريدين أن تتركيني؟

بكى وبكيت معه،

ثمّ بقيت معه.

حكيت لي كلَّ هذا، وأنت تصرخين،
تصرخينَ فيّ بغضب،
لأني خضعت للنصيحة وأخذتك للطبيب النفسي.
أخذتك للطبيب كي يُصمتَك ويرتاحَ الجميع.
دعها تصمت، دعها تصمت، دعها تكفّ عن الشكوى وأخرِسْ لسانها.

ونظرتِ إليَّ يَومَها نظرةً مجروحة، تمنيتُ معها أن تبتلعنَي الأرض،
وخرجت كلماتُك من حلقك حشرجة من مسامير: «لست مجنونة... كلُّ ما أريده هو الطلاق».

لحظتَها ركعت أمامَك.
أمسكتُ يدكِ وبكيت.
ونظرتُ إلى عينيك، وطلبت منك الغفران:
«اغفري لي ذنبي.
اغفري لي أني دأبت على ربط الجرح بالضّماد ولم أُطببه.
اغفري لي سكوتي وصمتي.
اغفري لي رؤيةَ الدمع في عينيك، وتجاهلَه».

وهمدتِ.
أجل همدت... يا لَلغرابة...
فجأةً حطّ السكونُ عليك وأنت تنظرينَ إلي،

كأني نطقت بما كان يجب ألاّ ننطق به نحن معاً.
كأنّ كلماتي صبّتْ ماءً على نار فخمدت.
وصمتٌ.
وهززتِ رأسك ببطء... ثم غبت.
غبت من جديد.

كلماتي كانت لك بالمرصاد، ذكّرتْك بما لم تريدي قط أن تواجهيه.
بنفسك التي ما فتأت تبحث عن المَخرج،
بحياتك التي رأيتها تنساب من بين أصابع يديك،
بحُلمك الذي قُتِلَ في المهد.

أيقظتك لتقتلك. قالت ما تمنيتِ دائماً أن أقوله لك.
لكنك لم تحتمليه من جديد.
أفزعك من جديد،
ورأيتك تتلاشين أمامي من جديد،
وأقسم إنّي عرفت لحظتَها أنك تضيعينَ مني من جديد.
ووقفت أمامَك ككلِّ مرّة عاجزةً، أنظر إليك وأنت تبتعدين.
هزمني مرضُك ككلِّ مرّة.

لكنك غبتِ هذه المرة عامدةً متعمّدة، بل أكاد أقسم إني قرأت في عينيك خلال لمحة، لمحة واحدة، قرارَك أن تسبحي بين الغيوم... قرّرتِ أن الجنون أسهل، وأسهل منه الاستسلام!

مرضُك كان جُزءٌ منه هروباً... أليس كذلك؟

هروباً منه؟ أمْ من عقلك؟

هروباً منه؟ أمْ من نفسك، من رغباتك، ومن الهواء الذي تتنفسين؟

هروباً منه يا أُمّي؟ أمْ من الفراغ؟

من اللّحظات والدقائق والساعات تنزلق على روحك كزئبق ثقيل.. آه ثقيل يا أمّاه.

يا حسرة النفس على ما ضاع منك وفيك.

# أدفنها من جديد. . .

لأنك غبت في عالمك من جديد، دفنتُك أنا من جديد.

دفنتك بيديّ هاتين.

حفرت قبرَك وحشرتك فيه وأنت تنتفضين، ثمَّ أهلت عليك التراب.

ووقفت أنظر إليه برهة، ثم نفضت التراب عن كتفي، ومضيت.

وقلت لنفسي إنك ستعتادين على طَعْم العلقم، فقد إعتدتِ منذ زمان على الصبر والصّمت. وإنه هو الآخر سيتحمّل، ويحملك على ظهره من جديد، يحملك ويعيش.

كأني عزمت على الانتقام، منكما معاً. أو لعلي لم أكن آبَه، أو أهتم.

كنت قد فقدت التوازن.

وظننت أنَّ الأمرَ سهل.

أقنعته أن يَهَبَك الطلاقَ الذي أردتِه ولو صورياً، حتى يُريحَك ويُريحَنا.

لكنه قالها لي بصوت ثابت: «إذا طلّقتها هذه المرّة فلا رجعةَ لها».

ولم أُصدّقه، وكان صادقاً.

وظللتُ معك فترة، بعدَ زواجي.

وأقنعتك بعدَ دخولِك المستشفى وتململِ روحك من جديد، بأن تعودي إلى الوطن، وأن تُقيمي منفصلةً عنه في شقتك، ولكن في البيت نفسه!

ووافقتني رغم كرهك للفكرة. فأيُّ خِيارٍ كان لديك غير ذلك؟

كنت تعرفين ذلك جيداً.

وتعرفين أكثر أنّ أبناءك، أرادوا أن يعيشوا حياتهم، ولم يكونوا ليكترثوا حينَها.

تعبوا على مايبدو، أليس كذلك؟

ولذا، يومَ اقترحت عليك العودة، وقلتِ لي إنك تفكّرين في الحياة مع ابنك، أدركتِ من عينيّ أنّ من الأفضل لملمةَ اقتراحك، وطويَه في أدراج الوعود المنسيّة، والأمنيات المستحيلة.

وركبت معي في الطائرة، وأنت تجرين قدميك وروحك من ورائهما جرّاً، وأنا جلادتك سيّدتي.

ورتّبتُ أمورَك في شقتك، وأنا أدري أني أرتكب جريمةً في حقِّكما، ثم تركتكما لمصيركما. أنت في شقتك العليا، وهو في الطابق الأسفل، تعيشان معاً لكنّكما منفصلان.

والتحقت بطائرتي وأنا ألعن اليومَ الذي وطأت فيه قدماي تلك الأرض.

ظلمتُكما معاً بفَعلتي تلك. صدّقاني، أنا أدرى الناس بذلك، لكني أردت أن أهرب، أن أعيشَ حياتي.

كنت قد سئمت لَعِبَ دورِ أُمّكما، دورِ الراعية... تَرْعَى الجميعَ وتنسى نفسَها.

أردت أن أحيا، هل تفهمان، أردت أن أحيا حياتي أنا، أنا، لا حياتكما أنتما.

أن أتذوّقَ رحيقها، بعيداً عن همومكما، عن تاريخكما، وجروحكما.

أليس هذا من حقي؟

أن أسمعَ صُراخي أنا، وأحنوَ إلى أنيني أنا، والعقَ جراحي أنا، وأنكفئَ على حُزني وحدي، بعيداً عنكما.

أن امحوَكما من حياتي، من تاريخي، ومن كياني، وأن ابدأَ حياةً جديدةً كصفحة بيضاء، بلا نزيفٍ يخنقني بدماء لا تنقطع.

بلا تاريخ.

أردت ذلك من كلِّ قلبي، ولولا الأنين والصدى لكان الأمرُ ممكناً.

لعنة الله على الصّدى.

# عودة . . . والعود؟

لكلٍّ مِنّا حكاية وقصة. وبغضِّ النظر عن تفاصيلها تظلُّ مهمة. له ولغيره.

مرّ عامٌ على ما مضى.

ثمّ عدتُ إليكما، هذه المرّة زائرةً مع زوجي ووالديه، وبدعوة من أبي.

وليتَني ماعُدت.

هل يمكنني أن أنسى استقبالكما لي الذي تجلّى بغيابكما معاً؟

كان ابنُ خالتي في انتظارنا في المطار. قال لي برِقّة، أقلقتني: «والدُك لم يتمكّن من الحضور».

أخذته جانباً وسألته دونَ كلمات. ردَّ: «والدتُك أُصيبت بأزمة جديدة، ووالدُك لم يحتمل وأغرق في الشّراب».

وغابت أنفاسي.

وصلنا إلى المنزل، وجدت الخادمةَ منهكةً من تنظيف المنزل!

أمّي قطعت كلَّ أسلاك الكهرباء الموجودة في البيت.

تصورت أن أبي يريد بي الضّرر.
تصورت أنه يريد قتلي.
فحمتني بقطع أسلاك الكهرباء!

دخلت على أبي، ورأيته.
أتعيسٌ يا حبيبي
أفرحٌ برؤيتي والدمع في عينيك؟ لكنّك مثقل مجروح.
لسانك ثقيل، يعتذر عن عدم الحضور، وتقول لي: «قدماي لم تحملاني».

سألتك عن أمّي. قلت: «جاء أخوها وأخذها. أنا لم أعد أحتمل أكثر».
كانت الساعة الثانيةَ صباحاً. والزيارة القصيرة طال أمدُها بعدَ ذلك.

* * * *

وطرت بك إلى العاصمة النفطية.
هذه المرة لعلاجٍ ضروري.
وأودعتك المستشفي. كنت مريضة حقاً.
وحتى تطمئنّي مكثت معك في المستشفى ثلاثة أيام،
ثلاثة أيامٍ بلياليها،
خاصمني النومُ فيها، وأنا أرقُبك.
تنامين برهة ثمّ تستيقظين في الواحدة أو الثانية صباحاً، تدورين

حول نفسك، وحولي. وتقدمين إليَّ حذاءًا أو قميصاً. ثم تتحدّثين معي حديثاً لا ينتهي. كأنّ سيلاً من كلمات غير مربوطة تعلّق بلسانك.

حكيتِ لي عن الأفاعي التي أرادتْ قتلَك، وقتلي. عن الرّب الذي حمانا معاً من لدغاتها. وعن حبك الأُسطوري لرجل هو نصف إله ونصف بشر، وعن الجنة التي تنتظرك. ستلتقيان في المستقبل على جناح من ريح، بعد موتكما.

ورغم الحزن الذي يغيّم في عينيك عند هذا المقطع، سرعان ما كانتِ الابتسامةُ تلوح على شفتيك وأنت تتذكرين أن الموت ماهو إلاّ البداية... المقدّمةُ لأبديّةٍ لن تنتهي من السعادة وراحة البال.

كنت أرقبُك وعقلي هو الجحيم.

أُسجّل بعينيّ تقاطيعَك وهي تتغيّر، تتلوّن سعيدةً أو حزينة، ثمّ تتبعثر في تَوَهان، تدخلين بعدَها في غيبوبة تقصر أو تطول.

والغريب أني لم أفقد عقلي أنا الأُخرى.

كنت أُجاريك، وأُحادثك في رفق،

وأنتظر حتى تأخذي جُرعَة الدواء أو الجلسة الكهربائية وتتلاشَي في السرير، ثمّ أغرس عقلي في الكلمات، كلماتٍ من رواية «الحكيم».

لم ينقذني من الجنون سوى كلماتها.

أقرأها وأُعيد تلاوتها، وأنا أستعيد صورة الشابِّ الذي خرج من وطنه بحثاً عن كنز، ليجده في نفسه.

كانت واحة، وجدت فيها السّلوى.

أُردّدها كقرآن، وفي كلِّ مرّة كانتِ الطُمأنينة تنساب إلى قلبي.

آه ما أجملَ أن تجد الهداية والخلاص في نفسك.

# فراق

ثلاثُ ليالٍ أعدن إليَّ التوازنَ من جديد.
جعلتني أُدرك ممّ كنت أفرُّ طوال تلك السنين.
واستفقت بعدَها.
عُدت إلى الوعي.
لكنّي لا أتنفّس.

واضطُررت إلى تركك في المشفى، فعلاجُك كان ضرورياً،
قلت لك لا تقلقي سأكون إلى جانبك رغمَ البُعد، وكنتُ حزينةً على فراقك.
كان شاقّاً مرهِقاً هذه المرّة.

وعُدت إلى بيتي في المهجر.
استقلّيت الطائرة وأنا صامتة، ونزلت صامتة.
ودخلت الشّقة وأنا أيضاً صامتة.
وزوجي فهمني لحظةَ رأني.

رحمني وتركني وشأني.

أدرك بحسّه المُرهف أني في حاجة إلى السكون إلى نفسي... أني أتوق إلى الصّمت.

وظللت لأيّامٍ وليالٍ قابعةً في رُكن من غرفة.

أحتضن ركبتيّ بينَ ذراعيّ، وأُحدّقْ إلى اللاشيء،

صامتةً.

ثمَّ أحسست في لحظة بشيءٍ يتشقّق في نفسي،

يتزحزح، يتدحرج، ثمَّ ينكسر.

وإنهارَ السّد.

ولم أقدر بعد ذلك على الصّمت.

كان دويُّ الأنينِ رهيباً.

كنت أراها وأسمع كلماتِها وأرى الأحرف تتراقص أمامي، ثمَّ أستفيق لأرى صُراخَ عينيها وعينيه.

ولم أحتمل.

جلست أمامَ شاشة الكمبيوتر، ولأوّلِ مرّةٍ في حياتي أشعر بأنَّ إرادتي مسلوبة.

لا قدرةَ لي على المقاومة.

لم أحتَج إلاّ إلى نقرة على لوحة المفاتيح، لتنهال الكلماتُ عليَّ كالسّيل.

لأرى الصُراخ يتدلّى من على الأحرف، وأنا أُدوّنه.

بلا رتوش.. بلا تجميل... كما هو... مخنوقاً مذبوحاً.

كتبت عنكما، عن الوطن، وعن المرض.

عن الصّمت الذي أصبح مستحيلاً، وعن الصّدى الذي ظلّ يُلاحقني كالقدر.

عن حياتكما، وعن فراقكما الذي يقطر صمتاً هو الآخر.

# رحلة بنت بطوطة

احكي يا شهرزاد.

هتف شهريار وهو يتأوّه.

فأومأت شهرزاد له أن يُقفل فَمَه ويخرس.

وأشارت إلى مسرور أن يقف على رأسه:

«لوح بسيفك أمامَ عينيه إنْ حاول أن ينطق، وضع حافّته على عُنقه إنْ جَرُؤَ على التفكير».

دعه يذوق ما أذاقه لغيرِه.

عساه يتذكّر رؤوس العذارى التي أطاح بها كلَّ صباح،

عساه يرى الدماء التي أراقها بسبب خياله المريض،

عساه يدرك فداحة الجريمة التي أقترفها باسم شرفه المنتهك.

ثمَّ أخذتْ الدّف،

وبدأت تضرب عليه بقوة،

وبدأ صوتُها يعلو،

ولم تصرخ.

بل أكملتِ الحكاية.

* * * *

كم مرّة قلت لي «إنَّ الجنون أرحم»؟
قلتها لي بعينيك ألفَ مرة.
منذ شفائك،
ورحيلك بعيداً عن الزّوج والوطن.
قصصتِها عليَّ مراراً في حكايةٍ كان مدادُها انكسارَ عينيك.
وحزنٌ،
حزنٌ حطَّ عليك كالأجل،
منذُ بدأتِ رحلَتك،
رحلة ابنة بطوطة،
من منزل إلى منزل،
ومن بلد إلى آخر.
وعشت في كل ذلك دون بيت.
وفهمتكِ جيداً يومَ قلتِ لي: «تعبت من التّرحال. أُريد أن أعيش في بيتي».
ولم يكن بوسعي أن أهَبَك ما تردين.
فلو كان الأمر بيدي لكانتِ الحالُ غيرَ الحال.
ولو أن الواقع غيرُ ما هو عليه الآن، لأعدت بناء ذلك البيت الذي تتوقين إليه
طوبة طوبة، وحجراً حجراً،
بيديّ العاريتين،
طوال اليوم، صباحاً وليلا، حتى يكتملَ لك.
كنت سأبعثه لك حياً ولو دفعت دمي فداءً له.
لولا أن البيت قد أنهار منذ زمن يا سيدتي،

ضاع كما ضاعت الأحلام،
وتلاشى كجزءٍ من العدم،
فأصبح من المحال أن نبنيه من جديد.
أصبح مستحيلاً.

وكنت تدركين ذلك وأنت تقولينه لي،
وأنا كنت أدركه جيداً كذلك.

ولذلك فهمتك أكثر يومَها،
وأحسستُ بحُرقة تنهّدك،
لفحتني بنارها يا سيدتي،
هدّتني.
وصدقُتكِ،
كاليقين.

# ذكريات

«لمَ تلاحقنُي الذكرياتُ يا ابنتي؟
«تتبعني كظلّي، في القيام والقعود، وحتى في المنام.
«لا ترحمني،
«وتطنّ حولي كالأجل».

ذكرياتٌ تعيدك إلى الحُلم يا أبي.
حلمٌ أصبحت تراه كلَّ يوم منحوراً،
وكنت قد رأيته من قبل وهو يُقتل أمامك.
أو لعلّك رأيته وهو يشنق؟

يتدلى من على حبالِ عفنة،
ويتحرّك.
يحمل عُنقه المكسورة على كفّه
ويدور في الشوارع
ويهتف من الموت صارخا:
«آه يا بلد».

أصبحتَ ترى موته كلَّ يوم
في كلِّ دقيقة، وفي كلِّ ثانية
في الناس من حولك
في الطفولة البائسة وفي الشيخ.

ولأن الحُلم، كما الوطن، ظلّ حيّاً في وجدانك،
أصبحت الذكرى سوطاً لا يرحم.

# الأمان

هل نسيتَ يومَ انهمرتِ الدموعُ من عينيك... وأنتَ تستمع إلى أُغنيةٍ يمنيّةٍ حزينة.

بكيتَ وهو يرثي المغترب الذي رحل إلى بلاد الحبشة..

وقصصتَ عليَّ حكايةَ خالك الذي بكته جدتك سنينَ طويلة... كلَّ يوم... بعد صلاة المغرب.

يومَ تزوّج ولم يتمكّن من فعل اللازم ليلةَ عُرسِه... فهرب خوفاً من العار... ورحل إلى الحبشة... وعندما عاد... عاد أبكم... أبله... الله وحدَه يعلم ما حَدَثَ له بعد هربه.

وكنت تراها وهي تنتحب وتدعو إلى ربّها أن يُعيده إليها سالماً... كلَّ يوم.

وكنت تستمع إلى نشيجها وأنت تجلس في رُكن من الغرفة... أنت وغيرك من الأيتام.. من أبناء أبنائها.

كان بكاؤها يقتلك.

يمزّقك،

ألم تكن هي... هي وحدَها السكنَ والسّلوى لك ولهم، الحضنَ الدافئَ الحنون... هي وحدها من كانت تُغيّب ذلك الخوف الرابض في نفسك..

آه، كم هو حزين أن تفقد الآمان.

وأراك اليوم... وأنا في العقد الرابع من عمري،
أراك بعين أُخرى...
عين أدركت كم كنت جريحاً دوماً... وحزيناَ.
آه يا أبي كم كنت مجروحاً دوما.
طفولة مُرّة... وتأبى حتى اليوم أن تحكيَها لي قِصّةً كاملة..
وتكتفي بالقول... «كانت أياماً قاسيةً»... ثم تلتفت إليَّ وتقول بلهفة كأنك تريد أن تطمئنني: لكن الطفل يخلق دائما لنفسه لحظاتٍ تُنسيه تلك الصدمات. وتبتسم وأنت تحكي لي كيف كنت تأخذ الحجر وتجري به متخيّلاً أنه عربة الإمام.

وكنت وحيداً أيضاً.
في فكرك، وفي إيمانك بالإنسان.
ألم تقلها لي وأنت على فراش المرض.
كنت إلى جانبك، نقطع الوقت بحوارٍ فكريٍّ ممتع متّصل، كما كان دأبُنا دائماً. وقلت لك في معرض الحديث: لا يهمّني دينٌ أو عرقٌ أو لونُ الشخص، لا أرى فيه سوى كونِه إنساناً.
فرفعت يدك الضعيفة لتمسك بذراعي، وقلت لي وعيناك تبرقان: الآن أنت ابنتي.

ثم إنك كنت خائفاً دوماً.
ألم تَقُلْها لي يوماً؟

«أخشى أن يدخلَ عليَّ رجلُ أمنٍ في عقر داري ويدوسَ كرامتي بنعليه».

وسمعتك أنت وصديق عمرك... تجلسان معاً على الأُرجوحة في حديقتك الجميلة... سلواك.

ورأيتكما تتناجيان... تحكيان عن عمر مضى...

وبدوتما لي تماماً كما بدا بيتُنا الكبيرُ القديم... متهالكاً... لكنه شامخٌ ذو كبرياء، والعزُّ بادٍ عليه... عزٌّ مضى... لكنه لا يزال محفوراً في خطوط وجهيكما.

وسمعتك وأنت تمازحه عندما خلط بين اسمين... عبد الكريم أمْ عبد الإله؟

فقلتَ له نصفَ ممازح: لا يهم... في النهاية كلُّنا عبيد.

وسمعته وهو يقول لك: لولا أحفادي وابنتي لرحلت عن هنا... أن تعيش دون أمان هو أن تعيش ميتاً.

جلست أنظر إليكما معاً.

أنهل من وجودكما معاً، وأملأ عينيّ بمنظركما الذي قد لا يتكرّر بعد ذلك.

صورةُ ماضٍ جميل... نظيف... ونزيه.

جيل آمَنَ، وكافَحَ... وكانَ يحلُم.

ثمّ رأى الحُلم يتعفن...

فأنزويتما كلٌّ في رُكن،

ترقبان...

وتتنهّدان.

ولذلك لم أندهش كثيراً عندما قلتَ لي يوماً: إذا فكّرتِ في العودة فسأضربك.

لم تضربني في حياتك سوى مرّة وأنا في السابعة من عمري.

وتريد أن تكرّرها إذا فكرتُ يوماً في العودة... إلى الوطن... إلى الحُلم، حُلمِك وحُلمي.

بيد أنَّى لي أن ألومك، وقد رأيتك وأنت تفجع فيه ليلَ نهار.

أبيت أن تراني أُواجه نفس المصير. كنت خائفاً عليّ.

ثم على من أكذب؟

أنا أيضاً أشعر بالخوف، بنفسي تنزلق في داخلها في كل مرّة أطئ فيها بقدميّ على أرض الوطن..

أخاف من الوطن. هل تصدق؟

وكيف لا أخاف منه والأمانُ فيه يتبخر أمامي، يتلاشى كفُقّاعة في الهواء.

كرامتي تصبح كريشةٍ خفيفةٍ بلا وزن، أيُّ هبّةِ ريحٍ تطيح بها إلى الجحيم.

نفسي لذلك تهوي في بئرِ قلقٍ عميقةٍ بلا قاع..

وأنتظر.

أنتظر لحظةَ الرحيل... بصبر... بترقّب... كأني أنتظر الفرج... كأني أبحث عن هواء نقيٍّ صافٍ فلا أجده... وأحبس أنفاسي بقوّة...

وأنتظر...

أنتظر لحظةَ التنفّس.

* * * *

ويكا يا ويكا.
خالة أبي كانت تحكي له عن السّلطان.
قالت له إن السلطان ثُعبان... فمه واسع كالدنيا
قالت له إن الثعبان بطنه كبير... جوفه بلا قاع
قالت إنها رأت السلطان فيما يُشبه المنام
يقف وهو ثعبان تحت شلال جارف رهيب
قالت إن فمه واسعٌ كالدنيا أنفتح وأبتلع الشلال
قالت إنها كانت عطشى
لكن السلطان أبتلع الشلال فلم يُبقِ لها سوى الرذاذ..
قالت له حذارِ ألفَ مرّةٍ من السّلطان
فهو شخص بلا أمان
ويكا يا ويكا، ليتك تقصّين عليَّ مرّة حكايةً جميلة.

# خيانة

«أنتِ منهم.
نعم. أنتِ منهم بالتأكيد.
أنتِ جُزءٌ من المؤامرة،
رُكنٌ أنتِ من أركان الخُطّةِ المدبّرةِ لقتلِنا.
لمَحونا من على خارطة التاريخ.
لتدمير ثقافتنا.

أنتِ لست منّا.
بل خائنة.
غادرة.
حاقدة.
تنفثين حقدك فينا،
وتبثين السُّمّ وتسكبينه من حولنا.
تلعبين على قناعتهم،
وعلى رؤياهم وأساطيرهم عنا.
وتلعنيننا زوراً وبهتاناً.

تعاونتِ معهم على طعننا،
يا خائنة.
أنتِ منهم،
رغم أنك محسوبةٌ علينا.

أردتِ أن تقولي إنّهم على حق،
وتؤكّدي الصورة والنموذج،

فقلت إن المرأة تُعاني كثيراً.
وهي عندنا تعاني أكثرَ من غيرها.
وإنها مقهورة، مدفونة، ومُكبّلة بالأغلال.
وإننا وحوش لا تشعر ولا تكترث.
وإن الذكر لدينا حيوانٌ بلا قلب.
جاحدٌ لا يعرف الحنان.
يغتصب ويَكره ويُكره
ويدفع المرأة دفعاً إلى الجنون.

يا خائنة.
لا تقولي إنك منّا.
أنت منهم لا منّا».

# ومواجهة

وددتُ يا سيدي لو فكرتَ مرّة.

لو استخدمت خلايا عقلك كما أراد الخالِقُ لها أن تُستخدم... أعني في التفكير.

لو كففت عن الهروب إلى الخلف والتعلّق بحبال الماضي... والخوف.

لو تعاملت مع الحياة على أنها رهنُ إرادتك.

وأدركت أن مصيرَك بيدك أنت.

أنت الذي تخلقه وأنت الذي تُميته.

لو نظرتَ إلى الواقع كما هو،

ببشاعته... وجماله،

بفقره... وإمكاناته.

ونظرت إلى نفسك كما هي،

بلا تضخيم أو تهويل،

كما أنت.

لأنك يا عزيزي عندما تنظر إلى المرآة يُعجبُك ما تراه.

وهذه مُصيبة.

وتتمعن في تقاطيع كينونتك وأنت مبتسم مبهور،

وتقول لنفسك

«آه ما أعظمَني... ما أروعَني... وما أكثرَ الحاسدين».

وهذه كارثة.

وتخاف من ظلّك وأنت مع من تسميهم «هم».

تنظر إليهم وتقول: «يريدون بنا الأفاعيل، يحقدون علينا، وطبعاً يريدون دمارَنا».

وهذه داهية.

وددت يا سيدي لو استمعتَ إليَّ لوهلة،

وكففتَ عن التشكيك في نيّاتي،

وتعاملتَ مع كلماتي بموضوعيّة.

لأنك حذفت من قاموسك تلك الكلمة «موضوعية»،

ومعها أخواتها من «عقلانية» و«نقدية» و«منطقية».

وأصبحتَ تحيا بمنطق اللاموضوعية، واللامنطقية، واللاعقلانية.

وفقدتَ معهن مَلَكة الشك.

يا حسرة العقل.

قررتَ أن لا تفكر.

ولم أعرف سواك أتخذَ قراراً عامداً متعمداً بعدم التفكير.

لم أعرف غيرَك هوى بسيفه على عقله ثم حفر قبراً له بيديه الاثنتين.

اكتفيت بالمؤامرة... كحلٍّ مريحٍ بسيطٍ جميلٍ.

أه ما أجملَ الأجوبةَ السهلة.

ما أرطبَ وقعَها على النفس.

مريحةٌ إلى حدِّ الموت.

مخدرةٌ كالأفيون.

لا تزُعجُ ولا تُقلقُ ولا تثيرُ الحواسَّ والمدارك.

كأنك لم تكن.

كأنك غيرُ موجود.

كأنك غيرُ مسؤول.

كأنك بلا إرادة.

بلا ذاتٍ ولا مقدرة.

قشةٌ أو فتلة أو حتى بعوضة... بل لا شئ.

هكذا تصوّرُ لي نفسك كلّما تحدثت عن المؤامرة.

هكذا تقول لي عندما تتحدّث عن «حقدهم»،

وأنت الذي تحقد،

وأنت الذي تغار،

وأنت الذي تموت غيظاً،

وتدعو الله ليلَ نهار أن يُسوّيَهم بالأرض،

تدعوه أن يدكَّهم دكاً، لكنّه لا يستجيب.

يا سيدي أنا منك وفيك،
ولعلّي خيطٌ يصل بينك وبينهم.
جسرٌ،
أو حلقةُ وصل.
سمّني ما شئت.

غير أني منك،
من كيانك،
من صميم حزنك
وماء دموعك.

فلو كنتُ غيرَ ذاك لما قذفت الصورة تلو الأُخرى أصفعها على وجهك،
لما بصقت اللّهب كُتلاً من نار على صفحات نفسك،
لما صرخت بأعلى صوتي أسُألكَ أن تستيقظ،

أنا لا أراهن على غيري.
راهنت عليك، عساك تُصدّق.
ولم أُرِدْ طعنك.
بل طعنتُ جُرحك،
هل رأيت الصديد وهو يخرج منه؟

كما أني لم أكذب.

بالله عليك هل تجنيت فيما قصصته عليك؟
هل افتريت؟
ألم أرسُمْ لك من نسيجٍ أنت الذي غزلته؟
نسيجٌ فصّلته أنتَ على مقاسِ أهوائك ورغباتك.
وغرستَ فيه أشواكاً ودبابيس
وأرغمتني على ارتدائه كساءا
دمائي تسيل لكنك تبتسم كالمعتوه وتقول: «هاك حُرّيتك. سوف تصونك من الغريب».
رغم أنك تعرف أني أبحث عن حريةٍ تصونني منك أنت لا من الغريب.

شهرزاد أنا يا سيدي،
لكن حكاياتي لا تسعى إلى سُباتك،
أقصُّها عليك يا شهريار كي أقرع على أُذنك بدويٍّ كالطّبول،
فلا تنام.

ثم إني لم ألعب على قناعتهم.
فجُزءٌ كبيرٌ من صورتهم... موجودٌ فيك.
وأنا وأنت أدْرى،
فلا تكذبْ.

كلُّ ما أردتُ قوله بسيط: «كلُّنا يا سيّدي في الخطيئة إنسان.
وأنها هنا كما أنها هناك.

لكنها لدينا أكبر، لأننا لا نريد أن نراها.
وهي لدينا أعظم، لأن الخوف يُكمّم أفواهنا.
وهي أفظع، لأن الصّمتَ لدينا دواؤها.
وأننا يومَ نُدرك ذلك سنواجه خطيئتنا... ونحيا.
نحيا كما نريد،
ونحيا بلا خطيئة».

أنا الصّدى يا سيدي،
صدى أنينك وأنينها،
لكن صوتي جَبله حُبّي لك ورحمتي بك،

وحُبّي لها كان أعظم،
ورحمتي بها كانت أشد،
وهي بضعٌ مني،
وهي الأنين،
وهي النزيف،
ولذا فإن قلبي يدقُّ بنبضاتها،
وصدري يتنفّس بهوائها،
وليتَني كنت فداءها.

ثمَّ إني القربان،
قدمته لك طوعاً،

وهبته لك اختياراً،
فأمنُتك بالله أن لا تجعله يضيعُ هباءً،
أقسمت عليك أن لا تركُلَه بقدمك كما ركلت كلَّ مَنْ أحبَّك،
بل تمعن في كلماتي،
دقّق فيها،
وفكّر،
أستخدم عقلَك هذه المرّة،

ثمَّ أغتسل بها بعد ذلك سبعَ مرّات،
وقل «أدركت» بعد كل غسله.

وتيمّم بحبري،
عفر جسدك به سبعينَ مرّة،
ثم قل «عَقِلتُ» بعدَ كلِّ عفره.

ثم ارجع عن الخطيئة
عُد عنها،
وقل «سأفكر» لتصبح طاهراً.

وكن «عاقلاً» كي تكون إنساناً،
وقُلْ «عَزمت» كي تصبح رجلاً،
وقُلْ «آمنت بوجودي» كي تكون شيئاً،

ثم قُلْ «سأعمل» كي تكون جديراً بالحياة!

قُلْ «سأكون»

«سأكون إنساناً لا يلبس حلة شهريار،
«ولا يسلط عليها سيفَ مسرور،
«سأكونُ
إنساناً. . .
تثق فيه امرأتُه.
يعيش بلا جوارٍ،
يعيش بلا مؤامرة،
يحترم الماضي،
وحاضره مريض،
لكن له مستقبل».

قُلْها كي أكون معك

# هي والسلام. . . أخيراً

لِمَ أشعر بهذا السلام يا ترى؟

صدّقوني، أشعر بدهشة عميقة لذلك.

سلام يغمرني،

يمتزج مع خلايا روحي، مع نفسي. . . ومعهما.

كأني تصالحت معهما في الجنة، وخرجت منها وكُلّي حب.

لكنها الكلمات.

كانت جريمتي دوماً هي الصّمت.

وقد كسرت جداره اليوم بهذه السطور.

هدمته، وشعرت بعد ذلك براحة.

طهّرتني الأحرف، وغسلت القيح والدم عن جرحي.

جعلتني أراه للمرّة الأُولى كما هو، في حجمه الطبيعي.

ثم أجبرتني على إحترامه.

وعندما أحنيت رأسي إجلالاً له تلاشى أمامَ عينيّ. . . لم يبقَ منه سوى أثرٍ بقي في جَبيني محفوراً.

وأكتشفت بعدَ أنْ دوّنت الصدى أني كنت دائما أُحبُّهما.

أُحبُّهما حُبّاً لا تسعه الدنيا نفسُها.
بل إني أتنفسهما حُبّاً.
وإني يومَ فررت، لم أفرَّ منهما بل من المرض.
تماماً كما فررت من الوطن، ذاك الذي أُحبه، لكنّه يخنقني بمرضه.

وقد استغرقني وقتٌ حتى أدركت ذلك.
ويوم أدركته كففت عن الهروب منهما.
عن صمِّ أُذنيَّ عن أنينهما.
فأصغيتُ السمعَ كما لم أفعل في حياتي،
ودوّنت الأحرف،
نقشتها بدمي نقشاً،
ورأيتهما كما لم أرَهما من قبل.

منذ يومها عرفتُ مَنْ أكون.
وعرفتُ مصيري.
ذاك الذي بيدي.

سأعيش يا جدتي.
سأحيا كما أُريد.
وسأحيا اللّحظة لن أتركها تموت بين يدي،
لن أتركها تضيع، لن أتركها تسيل من بين أصابعي.

لن أعُدَّ الثواني والدقائق والساعات أسألها أن تتزحزح فلا تتزحزح.
لن أجلس كما جلس غيري في الزوايا.
ولن أقبع كما قبع غيري على هامش الطريق.
بل سأخلق الحُلم، حُلمي أنا، وأبعثه حيّاً في واقعي.

لن أقول كما قال غيري يا حسرة الأحلام.
لن أقول كما قال غيري يا حسرة الأمل.
لن أقول كما قال غيري يا حسرة الوطن.

حُلمي فيَّ حتى لو تعثرت.
أملي في يقيني حتى مع الشك.
ووطني أنا ولو أنهار الوجودُ من حولي.
وطني حيثُ أكون،
وطني حيثُ أتنفس،
وطني الإنسان.

ولذلك كففت عن سؤالك يا جدتي عمن أكون.
ألم تلحظي ذلك بعد؟
فقد عرفت الجواب.

كنت وسأكون لكم رجعَ الصدى.
لكني في كل هذا أنا.

أنا لست هو، ولا هي، ولا حتى أنت يا جدّتي،
بل كلُّ سنيّكم وسنيّ السابقة،
شرخ ماضيكم، حُلمكم الذابل، ومرآة حاضركم.
لكني لن أكون في كلِّ ذلك سوى أنا.
هل عرفت الآن مَنْ أكون يا جدّتي؟

ويكا يا ويكا، طارت اليمامةُ يا ويكا.
رفرفت بجناحيها وحلّقت في السماء،
التحمت بقوس قزح.
فهنيئاً لها يا ويكا.

ثلاث قطرات من دم تختصر مصير امرأة. وعبوة مغلقة بين فخذي فتاة قُدِّمت مفاتيحها للرجل.

الدم له والعبوة يفتحها قرباناً لرجولته، والويل لها مَن تسول نفسها تذوُّق رحيقها قبل القران.

الجنس قذارة لا بدَّ منها، لكننا نمارسه في خيالنا ألف مرة. مارسناه حتى مع آبائنا وأمهاتنا وأخواتنا.

ونشهق. ندعوه إلى الطهارة كأنه براء منها، ثم نتأوّه.

البكارة قَدَر العذراء، والرجل يُعذَر عند التجربة.

معذور هذا الضعيف!

ثلاث قطرات من دم تقطع بالفضيلة أو بالعهر.

الفضيلة من فضلات المفروض، أما العاهرة فهي تعهر من عهد مكتوب!

ISBN 1-85516-499-X

9 791855 164993

DAR AL SAQI

دار الساقي